فيليب كلوديل

(عضو أكاديمية غونكور)

عطور

ترجمة: د. قاسم المقداد

رواية

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

عنوان الكتاب: عطور
اسم المؤلف: فيليب كلوديل
اسم المترجم: د. قاسم المقداد
الموضوع: رواية
عدد الصفحات: 160 ص
القياس: 14.5 × 21.5 سم
الطبعة الأولى: 1000 / 2018 م - 1439 هـ

ISBN: 978-9933-38-043-4

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى بموجب عقد مع الناشر الفرنسي
Editions Stock - france

Copyright ninawa

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

سورية . دمشق . ص ب 4650
تلفاكس: 2314511 11 963+
هاتف: 2326985 11 963+

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org
دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
Ayman ghazaly

العمليات الفنية:
التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب،
بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

فيـليب كلـوديـل
(عضو أكاديمية غونكور)

عطـــور

ترجمة
د. قاسم المقداد

العنوان الأصلي للرواية بالفرنسية

Parfums

EDITIONS STOCK
PARIS - FRANCE
منشورات ستوك Stock 2012

فيليب كلوديـل

Philippe Claudel

كاتب، ومخرج أفلام، وكتب سيناريو، وروائي. فرنسي، ولد في ٢ شباط ١٩٦٢ بدومباساد سور مورت، في مورت وموزيل.

حاز على جائزة رينودو الأدبية عام ٢٠٠٣ وجائزة غونكور للطلاب عام ٢٠٠٧.

إلى الصديق جان - مارك

وطريقنا المشترك في الماضي

والحاضر والمستقبل

«دعيني أطيلُ، أُطيلُ استنشاق عطر شعرك، وأغرقُ وجهي فيه، كما يَغرقُ العطشان في مياه الينبوع، وأحرّكه بيدي كمنديل هائم، لأهزَّ ذكرياتي في الهواء».

شارل بودلير

من قصيدة: نصف كرة أرضيّة في خصلة شعر

المحتويات

أكاسيا ١٣
ثوم ١٥
الإنبيق ١٧
عاشقات ١٩
بعد الحلاقة ٢٢
بوم Boum [حفل راقص] ٢٤
ضباب ٢٦
حشيشة ٢٩
قِرفة ٣٢
قبو ٣٤
غرف الفندق ٣٦
فحم ٣٩
جِيَفة ٤٢
حَشَفَة ٤٤
مَلفوف ٤٦
سيجار ٤٨
مقبرة ٥٠
حلاق ٥٢
مَرْهم شمسي ٥٤

زَمنان ٥٦
"أدواش" جماعية ٦٠
شراشف ندية ٦٣
عِطارة ٦٥
كنيسة ٦٨
طفلٌ نائم ٧٠
إسطَبْل ٧٢
إثير ٧٤
نار المخيّم ٧٦
عَلَف ٧٩
دُمال ٨٢
غولواز وجيتان ٨٤
قُطران ٨٧
الصلصال الوردي ٨٩
ملعب الرياضة البدنية (جيمناز) ٩١
وَدَكٌ مقلي ٩٣
خضار ٩٥
بيت الطفولة ٩٧
موت ١٠١
جُبن مُنستر ١٠٣
صيوانيّات ١٠٥
بنطال الصيد ١٠٧

مَسْبَح ١٠٩
المِيَولات العامة ١١١
مطرٌ عاصفٌ ١١٣
سَمَك ١١٥
مَرْهم ١١٧
سجن ١١٩
كنزة ١٢١
عُفونَة ١٢٣
استيقاظ ١٢٥
أنهار ١٢٧
قاعة الصفّ ١٣٠
تنّوب ١٣٢
رب البندورة ١٣٥
صابون ١٣٨
محطة تنقية المياه ١٤٠
أرض ١٤٣
زيزفون ١٤٦
تحميص ١٤٨
تِرغلّة ١٥١
شيخوخة ١٥٣
سَفَر ١٥٦
sexe feminism ١٥٩

أكاسيا

فظاظة طقسية: أعرف أشجاراً يكسوها الثلج مع بداية شهر حزيران، هذا الثلج السميك والخفيف في الآن نفسه، أشبه بالعناقيد القطنية؛ حيث تداعبه ريح المساء كما نداعب بطناً نحبها. أنحدر بدراجتي الهوائية في درب مجوّف، يمتد خلف مقبرة رومباسل، المدينة التي ولدتُ فيها، مدينة طفولتي، ومدينتي اليوم، نحو ملعب سومرفيل الذي غدا مهجوراً في يومنا هذا. أضواء كاشفة، درك وحراميّة. سألتحق بأصحابي: لونوش، أبناء فاغيت، إريك شو شناكي، دوني بول، جان - مارك سيزاري، فرانسيس ديلفابرو، ديدييه سيمونان، ديدييه فو، جان - ماري أرنو، بوتيجان، ومارك جونيه. أشجار الأكاسيا الكبيرة تغطي السماء الصافية، وتلتقي ببعضها مثل قبة متقنة الصنع. وعيناي مغمضتان، ورأسي مائل إلى الوراء، منتشياً بعطر التويجات وفرحٍ جنوني يحمله إليّ الربيع كلما عاد. ستتسعُ الأيام، كما هي حياتنا. ننتظر المساء مع شدو العصافير ونقيق الضفادع. ثمة ذهول أمام التشبث بآخر برد الأرض والانتعاش به. الغيوم نفسها سترحل مسافرة، بعيداً، حيث لن تعود إلا في شهر تشرين الأول. ستنجبُ السماء مغاربها الوردية المبطنة باللون البرتقالي والأزرق الشاحب، كما نرى في لوحات كلود غوليه الملقب باللوريني، الذي ولد على مسافة بضع فراسخ من هنا، قبل قرن من الآن. كانت أزهار الأكاسيا التي تنبعث منها روائح العسل والزُّغدات (أزهار الربيع)، حيث يئز النحل الشبيه بأزهار القرنفل الصغيرة والموبرة، تنتشي، وتؤرجحها ريح ناعمة. نحن أولئك الناس الصغار،

نبحث عن الأغصان الدانية المثقلة بعناقيد ذات لون سكري شاحب، نقطفها غير عابئين بجروح أصابعنا وقبضات أيدينا، دمنا القاطر منها علامةً على شجاعتنا. أقوم بصرّ العناقيد الطازجة الميتة، وأعود إلى البيتِ مُدوّساً بسرعة أرهقت ساقيّ، أمرُّ أمام المسالخ النائمة، حيث الثيران المسلوخة، المعلقة بكلاّباتها في الغرف الباردة تتأمل مصيرها القصير. أمي مهدت العجينة. أغرقنا فيها العناقيد المثقلة بالحب. عندئذٍ، لا بدَّ من المسارعة بالتضحية بها في الزيت المغلي كي لا تموت رائحتها العميقة. بل لتبقى حبيسة القشرة الرقيقة الذهبية. في الخارج، فتح الليل عينه واسعة زرقاء كعينٍ بروسيّة. القطة قرب الفرن تراقبنا وتتساءل. تأخر الوقت. الوقت مبكر. أعضُّ، بعينين لامعتين، العنقودَ المتهاوي المفعم بالأزهار والابتسامات والريح غير عابئ بالحرق فوق شفتي. هذا هو الربيع كله قد آل إلى فمي.

***

ثوم

أولاً، السكين تحزّ فص الثوم. سكين يذكّر حدها بهلالٍ دقيق جداً لشدة ما كان مشحوذاً. السكين نفسها التي كانت جدتي - يلقبونها بالقصيرة، رغم طول قامتها -، تغرزه في حنجرة الأرانب، بحركة دقيقة ومن دون أي تأنيب ضمير، لاستخراج الدم، وكنت لا أدير عينيّ، مفضلاً النظر إلى هذه المذبحة العلنيّة على الاستخدام المنافق للعصا من قبل البعض في ضرب هذا الحيوان على رأسه. والدي يستخدم الطريقة نفسها. لم أفوّت أي إعدام. تعجبني، على نحو خاص، تلك اللحظة، بعد أن يجري حزوز صغيرة حول القدمين، يقوم بقلب الجلد دفعة واحدة، كما يُقلب الجراب، ويفصله بذلك عن الجسم العاجيّ المائل إلى الزُرقة. الثوم، الذي يشبه فصّهُ ناب حيوان متوحش، هو أداة الجريمة التي تصقل المكعبات العاجية والدسمة إلى حد ما، التي لم يكن لديها الوقت أبداً لكي تطلق رائحتها لأن جدتي تسارع إلى وضعها في المقلاة السوداء والمحدبة، فوق قطع اللحم (البيفتيك) التي صارت تتجعد. يحدث انفجار. دخان انصهار، عينان تلذعان. مطبخ البيت الصغير الواقع في الرقم ١٨ من شارع شامفلوري توارى في الغيوم. سال لعابي. رائحة ثوم وزبدة حارقة ولحم تحول دمه والنسغ إلى عصير لذيذ بعد تماسه مع الدهن الذائب. أنتظر والجوع ينهشني. أجلس إلى الطاولة. طبق في كل يد. قماشة بيضاء مربوطة حول رقبتي. لم تكن قدماي تلمسان الأرض بعد. إنني الصوص الصغير لكني أصبحت غول الحكاية. أمامي الحياة كلها. تطرد جدتي ضباب المطعم الحقير عبر النافذة المطلة على الباحة،

وتسكب في صحني الخزفي المُرمّم الذي أحب تآكله المشقق والمزين برسوم الصيد، قطعة اللحم التي ذهبنا صباحاً لشرائها لدى بوتي مير الذي تقع ملحمته في شارع كارنو. تصلّبت مكعبات الثوم. بعضها أصبح أصهبَاً، بينما حافظت الأخريات على لونها السكري، واحتفظ بعضها الآخر بشكل مُدهش على بياضٍ بلون الياسمين، وقسم آخر بلون الحبّار. كلها تنشر أعجوبتها الدقيقة جداً فوق اللحم الساخن والمقمَّر. استكملت جدتي عملها بتقطيع دقيق لقليلٍ من البقدونس بمقص الخياطة الأسود، فسقطت القطع فوق اللحم لتمنحه رائحة العشب. ثم تنظر إلي مبتسمة. سألتها: «ألا تأكلي؟»، فأجابتني: «رؤيتك وأنت تأكل تغذيني». توفيتْ عندما بلغتُ الثامنة من عمري.

***

الإنبيق

إنه كوخ في مابوز، مبني من صفائح خشبية مربّعة قليلاً مُطينة بشكل سيء، واجتاح السواد بعض مواضعها، وكأن ألسنة من اللهب العنيد لامستها عبر الزمن. يقوم هذا الكوخ فوق نهر سانون، بالقرب من جسر بيير: سكوراس، فوق نتوءٍ، يمسكه جُرفٌ عال لا أدري أي أعجوبة تجعله ثابتاً هناك. تحته، ماء الشتاء، القليل، والرمادي والمضطرب. الأشنات الطويلة التي تشبه خصُلات شعر قذرة. وليس بعيداً عنه ميناء غران كانال؛ حيث تصطف زوارق مُتحاذية، كأسماك ضخمة بطنها مشبعٌ بالكلس والفحم. في شهر حزيران يخرج الكوخ من سباته. نلحظ نشيشاً وضجيجاً لا يمكن تحديدهما، ونفثات من أبخرةٍ ودخان، وتنقيطاً، وسوائل مقرقرة، لكنك تسمع أحياناً سعالاً أو أغنيةً، وهواءً يصفّر، وشتيمة أو اثنتين.

كنا أولاداً نتسكعُ في الأنحاء، أنوفنا وحناجرنا مفتوحة، نستنشقُ كل ما يصدر عن جدرانه حتى تنفجر صدورنا، غيرمبالين بالبرد الذي يبعث الخَدر في الأصابع، والاحمرار في الخدود. الإنبيق الخفيّ، وسيده الخفي مثله، يشدانا. فراشات تتمايل بالقرب من شمس الكحول. لأنّ هناك، في أعماق غموضٍ نجهلهُ، تكون الشمس هي التي تتحول إلى ماء الحياة، في متاهات تجويف هذا النحاس المُسَخَّن. شمس فواكه بلون الذهب أو الخبّاز والميرابيل، والأجاص، والكنش، والخوخ البري، المقطوف مبكراً منذ عدة أشهر، يانعاً جداً عند أسفل الأشجار بحيث يدفعها وزنها المُحلّى للسقوط

والتصدع في أغلب الأحيان، وقد أتعبتها غزارتها الفائضة، ولبّها الدافئ، ثم تخلط في براميل بحيث لا تتعرض للتعفن، لأنها اختلطت ببعضها في سلافةٍ مُسكرةٍ وفُقاعية. في الكوخ الواقع فوق النهر يُنجزُ الفصل الأخير. تسلم الآلةُ السائل إلى الزجاجات والقوارير التي حملها آباؤنا، لكن لها أيضاً حصتها، لأن الكوخ الأعرج، المتسامح يتركها تطير. لا شك أن هناك في السماء من ينتشي بهذه الأبخرة، لكننا فوق الأرض، لسنا أكثر من ملائكة، ولسنا شياطين، نصبح بسببها حيوانات متوحشة، وبليدين نتحرجلُ فوق دراجة ضاحكين من دون سبب. سعداء. تُسكرنا نسمة الكحول، كما تسكرنا الحياة.

***

عاشقات

إذاً، ما هو العطر الذي تضعه عاشقاتنا الصغيرات، حينما تلامس شفاهنا شفاههن للمرة الأولى، ثم، وبكل حماقة، لا يُعدن يعرفن كيف يتصرفن؟ عمري اثنا عشر عاماً. البنات لا ينظرنَ إليّ، والأولاد يسخرون من نحافتي. قلبي الخرشوفي يخفق حتى ليكاد يتوقف حينما تمر قربي ناتالي السمراء، أو فاليريا الشقراء. أكتب قصائد، وأزلقها في يدهن عند الساعة الثامنة صباحاً لدى وصولي إلى مدرسة جوليانا فارانس. أعمل على إعداد نفسي في برنامج التاريخ والأساطير: كليوباترا، هيلين الطروادية، أثينا، أفروديت، ديانا ونفرتيتي. أنتحلُ غير نادمٍ مؤلفي كتب اللغة الفرنسية: فاليريا تحت جسر الحرامية يجري نهر سانون وغرامياتي، التي عليه أن يتذكرها، أو أيضاً: غداً، ما إن يطل الفجر، حينما يبيّض الريف سأذهب إلى مدرسة ناتالي، أعرفُ أنكِ بانتظاري، لا يمكنني أن أبقى بعيداً عنكِ أكثر. لكن ناتالي لا تنتظرني. ولكي أبرهن على شدة عاطفتي، أخترع، من أجل فاليريا، فعل rododorer وهو فعل تفضيل يعني: أخرّف في العبادة. فأقول: فاليريا: فاليري أنا أخرّف في عبادتك rododore ! لم ينلني سوى هزّات أكتافٍ ونفورٍ رخو. ثم تؤول قصائدي إلى كريّات في مجاري المياه. يُرمى بها أمام عينيّ. فتبول فوقها الكلاب والقطط. كنت أقوم بدور الراصد، فأنا لا أصلح إلا لهذا، فأحذرُ فرانسوا الذي يعانق ناتاليا، ودوني الذي يفعل الشيء نفسه مع فاليريا، كي لا يباغتهما راشدٌ في الأزقة الضيقة التي تصل شارعي جول فيري وجان دارك ببعضهما. إنني المخدوع الراضي، الساهر على سلامة

الغراميات التي يمارسها الآخرون مع عشيقاتي. بعد ذلك أسألهم كيف كان مذاق تلك القبلات المنسوخة عن تلك التي يمكن رؤيتها كل يوم أحد فوق شاشة سينما جورج. قبلات سينمائية وثّابة وجامدة في الوقت نفسه، والتي يمكن اعتبارها بمثابة دعاية مخصصة للاصق سريع. يسمونها زلاجات. لكن الزلاجات الوحيدة التي أعرفها هي تلك التي أضعها في قدمي، في المنزل. إنها عتيقة ذات زخارف اسكتلندية، ورائحتها سيئة. بعد عدة أشهر عرفت: لكن هذا لن يكون مع ناتاليا، ولا مع فاليريا، بل مع كريستين فرنزي، السمينة فرنزي، خلال عصريّة عند عائلة فاغيت. نأكل الحلوى (الجاتو)، ونشرب عصير البرتقال والليمون بلون المُهلوسِات. نستمع إلى موسيقا بطيئة. لحن من المنوعات المشرّبة بالسكر كالمشروبات. تتشكل الأزواج. ونتحرك كما يحلو لنا. كثير من الراقصين يرتدون سراويل قصيرة. لم يكن غيرنا جالساً، أنا وهي. جاءت تبحث عني، وتمسك بيدي. لم أجرؤ على الرفض، وها أنا معها وجهاً لوجه. لم تستطع ذراعاي الإحاطة بجسمها إلا بصعوبة. خجلتُ من نفسي. ما الذي ستظنه كل من ناتاليا وفاليريا المتحاضنتين مع صديقي، لكن هل هما قريبتان، بعيدتان؟ أغلق عينيّ. ما زالت تضع وجهها فوق وجهي، باحثة عن شفتيّ، فتجدهما، ثم تقبلهما من بين شعر حريري غسلته بصابون دوب الذي غسلت به شعري، لكن فيه أيضاً ثمة شيء آخر، نباتيّ، حلو، مخلّل، عطر حلوى لذيذة، عطر حلوى خارجة من مطبخ صانع الحلوى، من تُويجات آتية من مراعٍي واسعة، لم أجد لهذا العطر اسماً، لكنه يخطفني، وأشمّه سعيداً فوق عنقها، وشفتيها اللتين عدت إلى تقبيلهما، لكن هذه المرة أنا الذي أردت ذلك. وبعد الرقص، جاءت السمينة فرنزي لتجلس فوق ركبتيّ كما يفعل الراقصون عادة بعد

الرقص. أحسست بألف كيلوغرام يضغط فخذيَّ العاريتين وأنا أنقل عضلاتي النادرة فوق عظامي، لكني لم أتفوّه بكلمة. صكّيت أسناني. تنشقت نقرتها، ووجنتيها، وفمها. تعانقنا مرة أخرى، وهذه القبلات المعطرة برائحة ملائكية خضراء - أخيراً عرفت الاسم - جعلتني بعد ذلك خلال سنوات أفتح قطرميز الفواكه المخللة الذي تحتفظ به أمي في أسفل خزانة المطبخ، وتستخدمه لصناعة الكعك وتزيّن به حلوى البابا baba. أتناول بملء أصابعي أعواد هذا الإكليل من عقيد الفواكه المحلاة واللاصقة، وأمررها تحت منخريّ، وأغلق عينيّ، وآكلها جالساً على مقعدي فوق المشمع الممدود فوق الأرض وأنا أفكر بالسمينة فيرنزي، وبقبلاتها - وأيضاً بميشيل ميرسييه التي يبث التلفزيون مغامراتها الشهوانية الناعمة -، مرنماً ذلك اللحن اللطيف الذي وحدنا -، سنذهب حيثما ترغبين، وسنستمر في حبنا، عندما يكون الحب ميتاً. الشكر لجو داسان الذي ساعدني أكثر بكثير مما قدمه لي أبولينير وهيجو مجتمعين.

***

بعد الحلاقة

أرمق والدي من تحت إلى فوق بنظرة جافة. كنا في قبو البيت، في صالة الاغتسال. كان واقفاً إلى المغسلة أمام خزانة تواليت صغيرة مثبتة في الحائط، وأبوابها الثلاثة عبارة عن مرايا. حينما توجهُ الدُرفات الثلاث تصبحُ قادراً على تأمل ثلاثة وجوه بدلاً من واحد، وأحياناً أكثر. آلة الحلاقة الكهربائية تنزلق فوق الجلد الذي يشده بين أصابعه لتسويته. يمر عدّة مرات فوق الموضع نفسه، تاركاً في النهاية جلداً ناعماً مبقعاً بالأحمر. إنه يستعيد شبابه شيئاً فشيئاً تحت بصري الذي لا يفارقه. إن لحية الليل، بيضاء أو رمادية، تبدو كرماد يتوضّع فوق وجهه أثناء نومه فيعطيه مسحة من الشيخوخة، تسعدني. موسيقا آلة الحلاقة أشبه بترتيل المزامير. صلاةٌ على علامتين أو ثلاث علامات موسيقية فقط، وجهير (باص) مستمر أشبه بالأذان الرتيب. الجو في صالة الاغتسال دائماً رطب، تشتمُّ فيه رائحة الحمام البارد ومشالح المسبح. ليس للغرفة نافذة، لذلك لا بدّ من فتح بابين متواليين، بابُ مغسل الثياب، وباب مطبخ الصيف. سحب أبي شريط آلة الحلاقة من مأخذ الكهرباء، ولفّه، ثم وضعهُ في القسم الأيسر من خزانة التواليت، وأمسك بزجاجة كبيرة ومسطّحة مليئة بماء أخضر، Mennen مخصصٌ لنا، نحن الرجال. أمامي الكثير لأصبح رجلاً. سكب في راحة يده اليسرى المُبَذّرة حزمة من السائل بعد أن خضَّ الزجاجة كما في الدعاية. وبسرعة بالغة طبطب براحة يده المغمورة بالعطر فوق وجنتيه، وذقنه، ورقبته عدة مرات. فجأة اجتاحتنا روائح متعاظمة من روح النعناع، زاد من شراستها أيضاً

الكحول الذي كان يتطاير في الهواء ويخز منخرينا. لكنه زال، ولم تبق سوى رائحة تذكّر بالترنجان melisse والليمون، وبنعناع الحديقة الذي أحبُّ مَضغَهُ في بعض الأحيان، بورقهِ الزمردي، منقوع صافٍ، وقشر أصفر، وفلفل أيضاً.مالَ أبي، الذي يناديني نونوم، أو جولوت، نحوي، وأدار لي وجنتيه الملتهبتين لأقبلهما. وهو طقس اعتدت عليه. أصبحتا مرنتين وطريتين، نعومة تخلو من أي شيء رجولي. لقد أعادت أعجوبة الحلاقة والماء الأخضر والدي من رجل ناضج إلى طفل رضيع.

* * *

بوم Boum [حفل راقص]

حتى لو كان وَضَحُ النهار ينير الواجهات في الخارج، يبقى الليل حاجتنا. زيف أعدنا صنعه مما هبّ ودب. فتيةٌ على أعتاب السادسة عشرة من عمرنا تقريباً، ندفن أنفسنا في الأقبية، والعنابر التالفة، وفي كراجات غطيت الفتحات الموجودة فوق أبوابها بأقمشة سميكة، بحثاً عن مخابئ مظلمة، وزوايا ميتة، وأرائك مبقورة تماماً نستخدم مساندها كحواجز. الاختباء من الآخرين. الاختباء من أنفسنا، وخوفنا من الاقتراب من فتاة، واستنشاق رائحتها هناك، نضمها ونحاول زلق يدنا فوق خصرها، فوق نهديها، والبحث عن شفتيها من دون أن ترى حب الشباب المتوتر المشرف على الانفجار فوق خدنا الأيسر. إذاً، عدم رؤية أي شيء، وعدم ترك أي شيء يُرى. ولا نسمع شيئاً أيضاً، لكي تختنق عبارات أحبك تحت ديسبيلات Dicibles فرقة الروك MC5، والرامون، وباتي سميث، وتلفون، وتراست، وكلاتش. أو فرقة sex pistols. يمكننا الاستمرار بالزعم بعد ذلك، أننا لم نتمتم بها. عُميٌ، صمٌ، بكمٌ، أو تقريباً. في بطوننا جوع شديد يكوي أحشاءنا. هل أجرؤ، لن أجرؤ. أقداح الكحول الأولى لا تُبهجُ بسهولة. ثم الرقص، وخلخلة مفاصل الجسم، بإيقاع، أو من دون إيقاع، وإنهاك الجسم بالرقص كي لا يموت المرءُ بهذه الطاقة التي تتأوّه فينا، التي ترقصُ فينا. عندها نفرغ عَرَقَنا، وأمزجتنا، وهياجنا، في غرفةٍ عوراء تصبح خانقة، وما أجمل أن تختنق، وتشعر بهذه الحرارة وهي تفعل فعلها بنا، حيوانية، مراهقة، تي شيرت أو قميص يلتصقان بالجلد. تحتار في ضباب

السجائر، ونفحات الخميرة والحشيشة، في أجسام شابة، عطورُ فتيات مزيّنات مثل نينا هاغن، وكايت بوش، أو لين لوفيش، مزيلات تعرّق للأولاد، وأفواه طازجة، أحياناً روائح زيت سيارة محروق، وملمّع، وشحم محرك، وكحول أبيض تفوح من كراج تصليح السيارات. ساعات غامضة على هذا النحو، في تلك السنوات الجيسكارية* العجاف، الصلعاء والفارغة، على حافة هوة الحياة التي نطمح فيها إلى أن نلقي أنفسنا، كقنابل بشرية صغيرة، من دون أن نعرف عنها شيئاً. متوحشون، منفلتون، لا يقلقنا شيء، نقطرُ أحلاماً وحباً، نتقيأ جِعتنا، ومعها عالم البالغين. في ما بعد، نصبح مترنحين، جمجمتنا تنفجر موسيقا وكحول، وعيوننا محمرّة. نعثر على هذا كله في قميص مُزفّت نخلعهُ، وكل منا عائد إلى بيته، ملطخاً، سكراناً، تفوح منه رائحة السجائر، والإنهاك، والعناق ما يزال ندياً، كشفاهنا وقلوبنا.

***

* جيسكار ديستان: أحد رؤساء فرنسا في أواخر السبعينيات.

ضباب

تبدو الخيول النائمة دائماً أشبه بجثث كبيرة. مُضطجعةٌ فوق خاصرتها، قوائمها مشدودة، كأنها تنتظر عربة المُقصّب الذي سيجرها إلى الحفرة التي ستُقّطّع فيها. الضباب يجعل منظرها رائعاً. إنه يغطي نصفها. أتجاوز سان - نيكولا - دي بور التي تشقّ مسلّتها السحابة وتترك فوق حجرها الأبيض أشعة شمسٍ غير لطيفة تقريباً. أفكر في مُرتزقة حرب الثلاثين عاماً، وبمن شنقهم جال كالو، والحيوانات والرجال الذين افترستهم الذئاب خلال شتاءات طويلة، وبرواية ريمون شواب الجميلة[مينغيت] Mengeatte التي نصحني بها رولان كليهان، الشاعر وصاحب المكتبة، الذي كان يدير، حينما كنت طالباً، مؤسسة[حول العالم] le Tour du Monde الكائنة في شارع ديميشوت في مدينة نانسي. إذاً، خيولٌ وضبابٌ على طول طريقٍ يقودني إلى روزيير أوسالين. أدوّسُ بهدوء. الضباب يفعل فعل غطاء الطنجرة: فهو يحتفظ في داخله، وتحته، بروائح الأرض المتفاجئة بخريفٍ طريّ العود كالمراهق، وعشبٌ أتعبه بردُ الصباحات، وحيوانات ما تزال في الحقول، ومراعي فارغة، وإسفلت مبلول. إنه قارورة بلا جانب داخلي، ومِرذاذٌ لا يتوقفُ، أتنشق رائحة جلدِ الخيول، وأنفاسها التي هدّأها النوم، وخواصرها المفروكة بالروث تحت عيونها المفتوحة. وأتذكر خيولاً أخرى: هي أيضاً خارجة من الضباب كما لو أنها خارجة من حلم رومانتيكي عجيب. منها خيول من منطقة الأردين، وأخرى للحراثة، أو بولونية للجرّ،

أثوابها لؤلؤ من ماء. حينما يقترن اثنان منهما تراهما يجرّان الزوارق الواطئة فوق المسار الذي تُسحب السفن إليه. وأنا طفل. أنفاسها تطلقُ غيوماً، وحينما أمر قريباً منها، أشعر بحرارتها الضخمة كحيوانات تبذل جُهداً عظيماً، وعضلات مشدودة تنفث الدخان، وشعر نديّ . أحبُّ الضباب لأنه يتيح لي دائماً الدخول إلى أعماق نفسي. وأنا أمشي خارجاً، في طبيعةٍ لا تسلّمني سوى هوامشها المباشرة، مع أن الانحتات قد افترسها بممحاة غير مرئية، يصبح العالم مجرد إسقاط للروح، فرضية ثاقبة وباردة قليلاً. أنا وحدي. وحدي تماماً، وأنكفئ نحو هذه الفكرة كما ينكفئ الحلزون في صَدَفتهِ. في حضور الضباب الكثيف، الذي ترى من خلاله، هنا وهناك تبعاً لمنطقٍ لا يمكن فهمه، مسطّحات من البياض تجعلك تظن بوجود منابع للضوء موضوعة في مكان بعيد، ومفاجآت لنهاية العالم الرحيم، يخلو من مآلات عظيمة ولا آلام فيه. الضباب، الذي يستخرج من دون حرارة، عطوراً مُعلّقة ومُحتملة، يفسدُ المنظر اليومي لكي يجعلنا نراهُ ونحسُّ به بطريقة مختلفة. وهكذا، فإن شارع هيلين، الذي شُقَّ تقريباً مقابل بيتي، وعادة ما تراه على شكل شارع صغير ضيّق، عارٍ، ميت ببيوته غير المسكونة ذات النوافذ المُغلقة، والحدائق البائرة، ينخفض قليلاً ليتجه منحدراً نحو جدار الكازينو الصغير وكُشكهُ المخصص للموسيقا، جدارٌ يكتسي، مع الضباب، غموضاً فنلندياً تفوح منه رائحة قرميدٍ فوّار، وفحم الكوك، والسخام، والتعبيد، ومعطف صوفي، وهبّة نهرية - هبة نهر سانون غير البعيد إطلاقاً. لكن أيضاً فوحان قناتين قريبتين هما القناة الصغرى والقناة الكبرى - فنشتمُّ هنا ما نرى، ما نحلم بمقدار ما نفهم. يدعو سيمنون

نفسه، وينبثق عالمه كله في دخان غليون ينفتح فيه مُتنزّهٌ ضائعٌ ترى احمراره من مسافة عشرين متراً بينما هو ذاهب نحو السحاب، تحت هالةِ مصباحٍ خافت الضوء، تقبع تحته كلبة هجينة بالغة السُمنة بحلماتها المستهلكة، فتنتهي إلى رفع قائمتها نابحةً، غير مؤمنةٍ بهذا النباح كثيراً.

* * *

حشيشة

لستُ من مدخني سجائر الحشيشة.فقط ألفّها للآخرين. أحبُّ الصناعة الحِرفية. فالحركات دقيقة، والتقنيات والعبقرية البشرية تنطوي على إنتاج شيءٍ فاعلٍ وسهلِ الاستخدام بأدوات بدائية كبعض أوراق السجائر، وقطعة كرتون، وتبغ مع حشيش، والقليل من اللعاب. كما تعجبني مهارة أحد الأصدقاء وعقليته المغامرة، بِن الذي يسكن في مدينة نانسي مع صاحبته نانوا، في آخر طابق غير مُدفّأ في أحد أبنية شارع غوستاف سيمون. في بيت المونة المجاور له. عمل بن على إنماء غابة صغيرة من القنّب الهندي (الحشيشة) خلال فترة الاصطياف، أوكل رعايتها إلى بستانيّ هاوٍ مُشترك في مجلة روستيكا Rustica. بن ونانوا لا ينتميان إلى عصرهما. حتى لو كانا يصغيان، في تلك السنة ١٩٨٣ إلى فرق موسيقية مثل Curs، u2، Joy Division، وفرقة Stanglers، أو De Peche mode، فإن قَصَّة شعرهما الطويل، الأملس، والمعتدل، وسيارتهما من نوع 2CV وكنزاتهما المحاكة يدوياً التي تصل إلى الركبتين، وكونهما زوجين مستقرين مع أن عمرهما لا يتجاوز ٢٢ عاماً.إن شغفهما بمنطقة Meuze وArdeche وبالطعام البيولوجي، والبرغل، والبقلة النابتة، وكراهيتهما لما هو نووي، ولمضادات الحشرات، وإعجابهما بزعماء الحركة البيئية الذين لم يطرحوا في تلك الفترة ما يثير الاهتمام، وتخريب عداد الكهرباء بقلم حبر ناشف من نوع Bic. كل هذا يدل على تأخرهما عشرين سنة، أو تقدمهما ثلاثين سنة. عندهما يكثر تعاطي المشروبات، كما أنهما يدخنان كثيراً، وهذا ما يخلق مناقشات عكِرة

خلالها يخطر ببال بن Ben وضع خوذة يرتديها عناصر شرطة مكافحة الشغب CRS سرقها زوج أخته باتريك، أستاذ اللغة الفرنسية البديل، خلال تظاهرات لارزال. الجُمل تبدأ لكنها لا تنتهي أبداً. الحركات بطيئة، والعيون ثقيلة ومخبولة. حتى القبلات تموت فوق الشفاه الساعية إلى التوحّد.

صوت غيتار مارك كنوفلر العذب يرافقُ الدخانَ المتصاعد نحو السماء. لو لم أكن مؤمناً مُمارساً، وأنا أتنشق مثل هذه الكمية من الحشيش الذي يشبه عطره رائحة الزهورات، والعشب الميت، والنار في الأرض البوار، والطب الطبيعي، والحطب اليابس، الذي يُسعدني، لما خرجت سالماً. صار الناس يشبهون عالم الساعات الهشّة. متاعُ البيت يصبح مرناً ويختلط بالمناقشات. الأضواء تتراقص مثل نانوا التي تَصرّ، حتماً، على أن نرى نهديها وهي تقف فوق الطاولة المنخفضة. البساط الشرقي المنسوج الذي يغطي الأرضية الخشبية الخالية من بعض شرائح تتماوج كفقار ظهر حيوان مِطواع. جارتي تعتقدُ أن اسمي جان - لوك. أحاول إقناعها بأن تخلع ملابسها، لكنها تقول لي إنها لا تستطيع مضاجعة إلا من يحمل اسم جان - بول. يحدث معي اليوم أن أفاجأ في الشارع بنفحات من العشب بالقرب من موقف الحافلات، عند طرف إحدى المدارس الثانوية، وأنا واقف تحت سقيفة واقية من الشمس والمطر. عندها أتذكرُ خفق جفون بن ونانوا. في غرفتهما، تحت السقف، قدماي فوق الطاولة، وإلى جانبي قدح من الغوردونز. أصغي بأذنٍ هائمة، إلى أحاديث بن التي تخبرني أن الأجبان المصنوعة من عجين مطبوخ مُسرطنة، وأن فرانسوا ميتران، بتعاظمه كرئيس

يساري، سينتهي إلى خوزقتنا جميعاً، بينما كنت ألفٌّ له لفافة رائحة، لأدفع حصتي كنديم. بالقرب منا، كان البيلبي بالبندورة يطبخ فوق نار الغاز الهادئة. ونانوا تصدّع رؤوسنا بأغنية Sunclay Bloody Sunday. وهي تحرك الطبخة كي لا تلتصق. ما يزال الجو ليس بارداً جداً. أعتقد بأني في غاية السعادة.

***

قِرفة

كبرتُ في بلد المواسم المقطّعة بالفأس، والقاسية، والحاسمة. ليس أقلها الشتاء الذي يُغلق الباب على السنوات، كما نغلق باب غرفة مليئة بالذهب والكريستال. نحلم فيه. نغني فيه. نأكل ونشرب فيه. هذه الولائم والعصريّات في شهر كانون الأول المروية بخمور الألزاس من نوع ريزلينغ وغورزترامينر، والكحول المصنوع من الأجاص، والجانرك، والتوت البري، لا تنتهي في الحقيقة إلا مع عيد التقدمة Chandleur (في الثاني من شباط)، على إيقاع رقصات الفطائر المحلاة (كريب) الساخنة. القرفة هي المدعوة الغريبة في هذه المناسبة. وهو سلوك لا نمارسه خلال بقية السنة، اللهم إلا من وقت إلى آخر، حين نضعها في التفاح المطبوخ بالسكر، أو نضيفها إلى الكيتش (نوع من الأجاص) عند نهاية شهر آب. حينما تحل بدايات البرد، تراها تمدّ خطمها المُفَلفَل. فنُخرجُ من القطرميزات الزجاجية أعوادها الشبيهة بأوراق مسمّرة والمُلتفَّة حول نفسها. نحوّلها إلى مسحوق نضعه في مدفع الهاون. هدية الملك المجوسيّ. يستقر الشرق في المطابخ حاملاً إليها موكبه، وأوهامه الخادعة، فيفرغها فوق الأثاث المصنوع من الفورميكا، والقماش القديم المشمَّع. الفطائر المفتتّة Sables، والجاتو، والخبز الصغير، والبريوش واللانزينتورت، والكوغلوف، كلها تحتوي على القرفة التي تبلغ بها غاية الرقيّ. يجعلنا المطبخ نغرق في أوروبا، وفي الزمن، مسافرين شرهين مُعفّرين بالطحين. أردتُ، خلال سنوات، وضع جغرافيا لحلوى ستريدل، الملفوفة بعجين رقيق، والمحشوّة بالتفاح والزبيب حينما

تكون في أكثر أشكالها تقليدية، وترسم تقريباً حدود الإمبراطورية النمساوية - الهنغارية إذ يمكننا تذوقها في فيينا، كما نجدها في البندقية، وترييست، وبوخارست، وفارسوفيا، وبراغ، وبودابست، أو برن، وكذلك في نيويورك حيث جاء كثير من مهاجري الخرائب والرماد بحثاً عن أمل جديد في الحياة. الحقُّ يقال، من خلال هذا (الجاتو)، فإنَّ القرفة هي التي تسكنني، بموسيقاها العنيدة الشميّة في الشتاء والعيد، مُحَدّرٌ مشروع كفيل بجعل أكثر العجين الفرنسي أناقةً ورقياً، إذ يسبغُ عليه، فعلاً، جمال اللكنة. حتى النبيذ الأحمر العادي، إذا تركناه يرتعش لوقت طويل في قدر فوق إحدى زوايا الفرن، بعد أن نضيف إليه السكر، وشرحات من البرتقال، وكبشة قرنفل، وحفنة من القرفة، تراه يتحول بفضلها، إلى شيطانٍ ساحر يحرق اليدين المُمسكتين بالكأس الذي نقدمه فيه، ويسخّن الفم والحنجرة، ويسكب النار في البطن، تنشأ عنه ضحكات وأضواء في طرف العينين وفوق الوجنة السعيدة التي جعلها برد الخارج بلون الورد. تشرع الألسن في نسج الخطايا والخرافات. نخلط الذكريات، ذكريات الحياة، وذكريات التاريخ، وتلك التي تتضمنها الروايات، كما نخلط أوراق اللعب. عندئذٍ، نستغرق في حديث مفاجئ عن المآذن، وسهوب التوندرا الروسية، والأميرات المعتزلات. عن خانات القوافل، والخيول الصغيرة والسهوب. عن النجاحات الكبيرة، والسيوف المكسورة، والإمبراطور المقرور في قصره، والجلد المجمّد، والجنود الباقين على وفائهم، الغارقين في ماء روسيّ. بينما ضاع كل شيء، ومات العالم، ولن يعرفوا ذلك أبداً.

* * *

قبو

عمّاتي تيريون، أو بالأحرى شقيقات جدتي من جهة الأب، بقين في سان بليز، وهي إحدى قرى جبال الفوج الصغيرة touten rue. نسميهنّ «عمّات سان - بليز»، فنخلطهن بهذا بثلاثية قديمة. ولا نعبأ بأسمائهن الأولى اللائي من شأنها التمييز بينهن: بيرتا، كاترين، ومارغريت. أتساءل اليوم عن سبب احتفاظ ذاكرتي بطريقة مَرَضية دقيقة بسماتهنّ، وتجاعيدهن، وشعرهن وقصاتهنّ وملابسهن الرمادية السوداء والزرقاء المستوردة من جنوا Genes. أحب جدتي لأمي بحنان، مع أني فقدت ملامح وجهها. لا أب إطلاقاً لأولئك العجائز اللاتي لا يبتسمن، ومع ذلك يجدن مستقراً لهن في ذكرياتي، مرتاحات كما لو كنّ في بيوتهن. لم يتزوجنَ أبداً، وعشنَ في بيت العائلة الكبير الذي يلامس طرف سقفه الخلفي المِبقلة (مزرعة البقول) حيث يتكفّل الملفوف بالحراسة حتى بعد الصقيع الأول. هناك، الغابة بسنديانها الأسود المضطرب، والطحالب والأغصان الدانية. يستقبلننا في مطبخٍ، ينسلّ الضوء إليه من نافذة صغيرة ومصباح معلّق لا يُنار إلا إذا لم يعد أحدٌّ قادراً على التعرف على وجه الآخر. أنا موضوع خلافات تتجاوزني، تعود أسبابها إلى أحقاد دفينة: في كل مرة كانت تُقدم إلينا فطيرة بالجانرك، مخدوشة ورخوة من دون طعم، كما لو كان الأمر يتعلق بتقدمة كماليّة ورغماً عن أمي، التي تراني ألتهم الحلوى اللذيذة، وهو ما يدفع حتماً إحدى خالاتي إلى القول: «حسناً، كان هذا المسكين جائعاً!»، وهي طريقة لتوبيخ أمي على أنها لا تطعمني ما يكفيني، وبالتالي على كونها أماً سيئة. بعد ذلك كنّ يتركنني حراً في البيت، فأصعدُ إلى غرفٍ آخرُ

من نامَ فيها كائنات تعود إلى عام ١٩١٥. أفتح خزائن وأكتشف قبّعات مستديرة تفوح منها رائحة النفتالين، وأطقم موتى، وخيزرانات ناعمة، وباقات ناشفة، فيبدو لي متحف الحيوانات الراحلة هذا كتاباً من دون أبجدية. ينتابني إحساس غامض بأن عليّ أن أكوّنه وأكتبه. يُسمح للطفل، الذي أنا هو، بتنشق روائح هذه الغُباريّات الميتة، وأوصاف الأرامل، والأقمشة اليتيمة، ليربطها ذات يوم في بُنية، ويعيد الحياة إلى حيوات فُقدت أثناء الحروب، والأمراض والحوادث. الغرفُ، والأجواء، والأماكن العالية، تتحول إلى مرثيات معتمة، بينما يصبحُ القبو الممتد على طول هذا البيت الفسيح، قصيدةً من الجحيم. أنفذُ إليه مُرتعشاً، فلا أبلغ نهايته أبداً – ترى، هل له نهاية؟ فبعد عدة أمتار يخيّم السواد تماماً. الرفوف التي تحمل زجاجات خمرٍ بأعناقها الرمادية، ومعلّبات الخضار، تختفي مع اختفاء القبّة الحجرية. البرد يصبح سيد الموقف، وخطاي التي تغادر الأرض الصخرية تحط فوق أرض كما لو أن الحفّار أعملَ رفشه فيها. تبعث المغارة إليَّ أنفاس آبارها، ثقيلة، لزجةً مخلوطة بالغُضار والطين. ترتعدُ أوصالي، وأكفُّ عن التقدم. أحاول أن أبقى أطول وقت ممكن في الحفرة. قلبي، هذا الحيوان الصغير المحبوس في قفصه، يصطدم بحواجز الجلد. يحاول القبو أن يسحرني بتعويذته المكوّنة من العُفونة وملح البارود والبخار الكامد، وجنيّة أعماق قبلة الليل التي تضيّق عليَّ وتحضنني، لكن الخوف الشديد يغلبني أخيراً، فأدير ظهري إلى لانهائيات المداد، وأعدو في الممرات الضيّقة لأبلغ ذراعي أمي اللذين أسارع إليهما، لاهثاً تحت النظرة الرافضة للعجائز الثلاث، فتداعب اثنتان منهما ذقنيهما بتذمر.

* * *

غرف الفندق

أعرف كثيراً من غرف الفندق. كثير جداً من دون شك. وهو ما كان يبعث فيّ غاية الإثارة. خلال مرحلة الطفولة، صار مبعث قلق بسيط. ترى، هل كنت أحب غرفة الفندق تلك التي سُلّمتُ مفتاحها تواً، ولا أعرف عنها شيئاً بعد، لا عن إنارتها، أو ألوانها، ولا حتى أثاثها، أو روائحها؟ هل سأشعر بالراحة فيها؟ لاسيما، لا سيما هل يمكنني الكتابة فيها؟ أصبحت غرف الفندق، منذ سنوات، مكاتبي ومختبراتي. هناك تلدُ قصصي الصغيرة. وفي القطارات والطائرات أيضاً، أكون ثابتاً أو متحركاً، لكن منزوياً، ودائماً بعيداً عن بيتي. لي من العمر خمسة أعوام، سبعة أعوام، عشرة أعوام. غرفة الفندق تعني العُطلة. تحمل أهميتها، وغربتها. لا رائحة فيها تشبه رائحة البيت، وما أتذكره بوضوح، هو عطر الصابون، ومناديل الحمام، التي، ما إن أجتاز العتبة، حتى تستقبلني في تلك الغرف الواقعة في وادي أوتزال في التيرول، المتميزة بزينتها الخفيفة، وحيث ينذر خشبها اللمّاع وغطاؤها المحشو بالريش، براحة ناعمة سأعيشها لبضعة أيام. هذه الغرفة ليست لي. فهي لا تعرفني، ولا تنظر إلى أي شيء فيّ. أدخل إليها كما أدخل مكاناً جديداً، لا ذاكرة للآخرين فيه.إنها فضاء تنعدم فيه الشخصيّة تماماً، من شأنها أن تجعلني غير مرتاح، وفي المقابل، تريحني بوصفي مسافراً، أو مجرد كائن عابر. ينبغي أن نرى في غرف الفندق مجازات حيواتنا أكثر من أي شيء آخر. موكيت جديد،

وشراشف مُنظّفة ومكوية من شركات تنظيف صناعية تستخدم المنتجات الفعالة نفسها، والتي لا رائحة لها - غياب الرائحة هذا، يصبح رائحة في نهاية المطاف -، صالة حمام معقّمة، خزائن من دون عطور. تجدُ، أحياناً ورداً في مزهريات، لكنها ورود قُصدَ ألا يكون لها رائحة. إنها ناعمة وغالباً ما تكون من نوع الأوركيدا. وحدها منتجات الحمام تبوح برائحتها. "جِل" استحمام، وكريم مرطب، وصابون. سأعود إليه، وإلى انطباع الطفولة. غرفة الفندق، مكان لا نستخدم فيه الصابون نفسه إلا في البيت. أحياناً، لا أكتب فيها شيئاً. فالمكان يرفض ذلك، ولا أبحث عن السبب. أحياناً، أكتب فيها لساعات، ناسياً حياتي ومرور الزمن. فالفضاء هنا ملك مؤقت.. أترك فيه رائحتي، كما يترك الحيوان رائحته فوق منخفض، أو تحت أجمة حيث يقضي الليل. لكن في اليوم التالي، بعد قليل من رحيلي، يمَّحي كلُّ شيء مني فيها. لا أحد يمكنه، عند دخوله إليها، أن يعرف بأني شغلتها. نُنسى بسرعة شديدة. مجازٌ أيضاً. أحياناً، حين أمدّ جسمي تحت السرير بحثاً عن النظارات، أو القلم الذي وقع تواً من يدي، أعثر على جورب، أو زر أو مغلف علكة. نعم، عندئذٍ فقط أعي، من خلال هذه المؤشرات، أن هذه الغرفة، شهدت على الأقل شاغلاً آخر، تؤكد وجوده هذه الأشياء الصغيرة. لكني لست شرطياً ولا منقب آثار، فأترك هذه البقايا من دون أن أدفعها إلى الكلام. في بعض الغرف ثمة من دخّن، إذ تبقى أوخام من تبغ بارد مرصع في السجاجيد، والستائر الكبيرة، وفجوات المفارش والفرشات، وفي الخزائن. صابون وتبغ. خليط عجيب، لكن التبوغ الميتة تنتهي أيضاً إلى التعفّن. إنها لا تدلّ على

من دخَّنها. رجل أم امرأة؟ من نام هنا إذاً عشية البارحة؟ ليس لغرفة الفندق جنس، أو هيا خُنثى. الحقيقة، إنها غير مبالية. لا تهتم، لأنها تهبُ نفسها لمن يدفع. إنها بَغي تغلق عينيها ولا تقبّل. تتزوجنا لبضع ساعات، لليلة، وتجعلنا نعتقد بأننا الوحيدون، وتتغطى بروائحنا لتكذب علينا بشكل أفضل، ثم نطردها كما تطردنا. عطرها حقيقي، إنه عطر قِصر مدة حضورنا، وضعفنا.

* * *

فحم

نتدفأ بالحطب والفحم، بل بالفحم أكثر من الحطب؛ قبل الشتاء تتوقف شاحنة من شركة أوبير لتسلمنا شحنة الفحم. عشرات الأكياس المتسخة من قماش القنب، يحملها رجلان وجهاهما أشبه بالظلمات. وحدهُ بياض العيون والأسنان ينمُّ عن شيء من الإنسانية، لكنها إنسانية تبعث على القلق. إنسانية قاتلٍ أو مفترس أطفال. أحدهما يحمل اسم أحد آلهة الشمال أودان Odin. أيديهما التي تقصف الرقاب، تمسك بالأكياس فوق سطيحة الشاحنة، وبحركة من الخاصرة، يقلبانها نصفياً فوق أكتافهما لإنزالها إلى القبو بخطوة غير منتظمة وبطيئة. بعد أن تنتهي المهمة، يمسحان العرق فوق جبهتيهما بقفا يدين مُتسختين. يقترح والدي عليهما قدحاً من النبيذ الأحمر فيكرعانه دفعة واحدة، وهما واقفان لا ينبسان ببنت شفة. تتجاور كومة الفحم مع كومة البطاطا على شكل قوالب أو كرات، أو خليط. الاثنتان تتقلصان بمرور الأسابيع. بهذا يمكننا قياس انتهاء موسم البرد. في المدينة، يتصاعد من المواقد كلها دخانٌ قاتم، ثقيلٌ، يعاني من الصعود نحو السماء أو الانتشار فيها. غالباً، ترفض السماء هذا الدخان، فتعيده نحو الأرض، أي نحونا. نحن الآخرون. عندئذٍ نختنقُ بهذه السحابة السامّة التي تتوضع أجزاء من سُخامها في كل مكان، في الحدائق، وفوق الغسيل المنشور لكي يجف، وفي شعورنا، وفوق الثلج الذي يجد في ذلك ضده. يرسلونني لأجرف. أملأ سطل الزنك الغريب ذا القاعدة المربعة والذي يضيق في أعلاه متكوراً. أصعد ممسكاً به بيديّ الاثنتين. الفرن ينتظر

كحيوان جائعٍ يريدُ أن نقدم له حصته. أرفع فتحة الباب بكلاّب، أدحرجُ المادة السوداء في الفك المحمّر. الحرارة الفظيعة تطبخ جسدي، وأحياناً تُشيط حاجبي. خنزير مشوي. مقلاة سوغلان تلتهم نصيبها. فتشرعُ بالهرير مرتاحة. شبعانة. أفتح حقيبتي وأشرع بكتابة وظائفي فوق طاولة المطبخ، مع عطر حساء المساء. أنا في حال جيدة. أحب الكتابة والقراءة في المطابخ. إنها بالنسبة إلي المكان الأساس. بسيط ومن دون تكلّف، وبعيد عن قبح البروتوكول.

ليس علينا التفاخر، ولا القيام بأي لعبة اجتماعية. المطبخ يعرف حقيقتنا العميقة. يرى في الصباح وجوهنا التي ضعضعها الليل، وفي المساء، بعد نهار طويل، حينما نخفض الحراسة، ونفك أحزمتنا، ونُظهرُ ضعفنا. اختفى موزعو الفحم بعد تركيب التدفئة المركزية. ثورة. نعيش فعلاً في الدفء. لم يعد السخام ينشر السواد في أقبيتنا، وكفّت ربات البيوت عن مطاردةِ الغبار. مواقد لا يخرج منها سوى سحائب شفافة لا تشتمّ منها شيئاً. نسينا الرائحة، وأغلقنا المناجم، وسديّنا ثقوب زجاج النوافذ. اختفى الفحم من حيواتنا. بعد عدة سنوات، مشيت في أحد شوارع بولونيا، كاتوفينش. كنا في شهر شباط. الطقس بارد جداً، والليل أرخى سدوله. صادفت أشباحاً يتدافعون فوق الرصيف، ويحثّون الخطى. رؤوسهم خفيضة اختفت تحت قلنسوات كبيرة، وقبعات بياقات. مخازن ضعيفة الإنارة. مقاهي لا تشدُّ المرء إليها. بعض السكارى يتشاجرون مع ظلّهم. وفجأة، جاءني تيار هوائي مفاجئ من الأعلى وكنَس كل ما كان مستقراً فوق السطوح. وجدت نفسي في سحابةِ دخانٍ مغبّر ولاذع، كأنه أخضر قليلاً أو أصفر، هيّج

حنجرتي وأنفي. فحم. فحم ما يزال الناس يحرقونه هنا في كل مكان تقريباً، في هذا البلد الذي ما يزال يستثمر المناجم. رائحةٌ عبرت من أيام الطفولة، ورائحة فقرٍ، وحزنٍ أيضاً، كما لو كانت جزيئات الوقود السوداء شاهدةً على التعاسات، كبيرة كانت أم صغيرة، مُضرة أم تافهة، دائمة أم عابرة، تتوضع فوق الحيوات البشرية.

* * *

جِيَفة

عند منطعف أحد الدروب الضيقة، نصطدم برائحة نفّاذة بمقدار ما هي قوية، وجدارية، تحرضها قشور آلاف الحشرات التي تجعل من الموت تجارتها، وموسيقاها، وريعها، عندئذٍ ندخل في القصيدة. قصيدة بودلير حتماً. القصيدة السوداء حول الحياة ومآلها. في الهواء الطلق، بعيداً عن أي لحد، ثمة جمال السماء، جمال الأشجار الثرية، والورود المعلقة بسياجات الأغصان الشائكة. هناك العشب الأخضر الممشوط، والتراب الأصهب، آلاف الأشياء تنشد، ثم فجأة نصطدم بالموت. مُدَوّخاً. طليّاً. حيوانياً. فظيعاً. في الحقيقة، قد لا يكون بهذه الدرجة من الفظاعة. بالأحرى مُحبط، كيَخنةٍ متبّلة لم يخلطها الطبّاخ جيداً. كقطعة لحم منسية في قاع القدر. غالباً، ينبغي علينا الاكتفاء بالرائحة. إذ لا يعود للحيوان بقايا. هل هو شبحه ما نشتمّهُ، أم خطأنا؟ هكذا أبحث عن العديد من الجثث في أدغال سير Serres، وفلانفال، أو هوديفيلر، التي شعرتُ بعفونتها مُصادفة خلال لعبة الدرك والحرمية. لكن مَن يسرقُ ماذا؟ الموت نهب الرهنَ كُلّهُ، حاملاً معه أنفاس ثعلبٍ ثَقَبَهُ خُردقُ فلاحٍ، وقطة حييّة، رحَلت لتموت بعيداً عن مالكيها، ويحمورٍ مريض، هاجمتهُ كلابٌ باحثةٌ عن طريدة. ثم، يتعاضد الفساد والحرارة، لإنجاز العمل. جسم منتفخ، وغاز، وأخلاطٌ ناضِحة، والتتمة نعرفها. وردةٌ لا يحتمل بلوغها أقصاها، الجيفة حَذِرة، كما لو لم تكن لديها الجرأة على إظهار نفسها. مخفيّة. مسكونة. خجولة. لم يبق منها سوى ذكرى عنيفة. الجيفة هي ما لا يعود يشبه شيئاً. ما لم يعد له شكل. الحي

الخجِل التجأ إلى العفونة، مقّره الأخير. ثم هناك هبةُ ريحٍ من جبال الفوج، ثم قليل من المطر. انتهى الأمر. نمرٌ في المكان نفسه لاحقاً، فلا يستعذبنا سوى زنبق الوادي، أو حظٍ غير منتظر، بينما تنزلق خطوة ابن عرس الحذرة فوق الطحالب.

حَشَفَة*

نظن أحياناً أننا نرى جماجم مملوطٌ شعرُها. قشٌّ رقيق أشقر فوق جلدٍ جاف. فرشاةٌ عسكرية. هذا عند نهاية شهر تموز، حينما يصبح الطقس حاراً. الناس يحصدون، ويضربون السنابل. صارت الآلة تقوم بكل شيء. آلة ضخمة، تشغل حارتيّ الطرقات التي تمر فيها. في المساء تسطو على القمح الذي تحصده أنوار مركباتٍ فضائية. حينما ينتهي كل شيء، لا يعودُ ما كان أمواجاً من السنابل سوى أرض مسحوجة، حرمت من غرّتها الثرّة. إنه الانقشار. حقول مجدوعة، صالحة فقط لعدة أسابيع لتبقرها بعد ذلك سكة المحراث وتنتظر مُحرّبة بذار الشتاء. أما الآن، ماتزالُ جذور الجذوع المقطوعة تغطس من دون فائدة نحو ما هو غير مفيد. قليل من القش القاسي والبذور المنفلتة من سلة القطّاف تختبئ في الأخاديد لتذكرنا بما كان. نتنزه فوق درب **ليه تروا ينغر**، وقبل أن نصل تماماً إلى دير **نوتردام دو بيتييه**، ونشعر بظلّ أشجار الكستناء، وقرقرة نبعها، نسير مُحاذينَ حَشَفةٍ تفوح منها رائحة المخبز والخبز الساخن. تثير الريحُ في السماء زوابع صفراء فوق اللُّقاط** الذي يتخذ في بعض المواضع، تبعاً لانحناءات الضوء، رنّة النقود المعدنية. سحابات. أعاصيرٌ صغيرةٌ من دون دمار. نظن أننا في مقطعٍ توراتي. لم يتوقف بحثنا عن الله، في الحقيقة. عصافير تسقط، كمطرٍ جاف قطراته سوداء ضخمة، تحت بصر الأكاسيا المصفوفة بشكل شرائط شوكيّة

---

* أصل الزرع الباقي بعد الحصاد.

** ما يبقى في الأرض بعد الحصاد.

على طول الدرب، تنهب المحتضر آخر حبات القمح الساقطة. الشمس تطبخ كل شيء، غبارٌ وسيقان، وأرض مفتوحة بتفسخات عديدة، وسنابل، من الغرابة أنه لم يطلها شيء، باقية وحيدة على قيد الحياة، ترقد تحت رحمة المناقير وأسنان القوارض. عجين. خميرة. مِعجَن. طحين ووزرةٍ بيضاء. أغلق عينيّ فأجد نفسي دافعاً باب روز أو **فلورانتان**، المخبزان المتوفران في شارع ماتيو. أشقُّ نهاية ليلة باردة راكباً دراجتي، لتصادفني أنوارٌ أخرى تجري في موسيقا احتكاك المولّدات. أمام المخبز. بأصابعي المتخدرة، أدفع الباب المفتوح منذ الساعة الخامسة صباحاً. أول خبزةٍ تُشيعُ حرارة عجينها، والباغيت - نسميها فلوت flutes - أو الباتار، ويسمى هنا خبز طويل، يصطف فوق الرفوف، أو يُضغط في السلال المصنوعة من الصفصاف. أوائل الزبائن هم عمالٌ لدى سولفاي لم يتخلوا عن عملهم الليلي، وعجائز جافاهم الكرى لوحدتهم، وصيادون يجربون حظهم في الصباح، وسائقو سيارات عابرون. أزلقُ الخبز بين السترة والكنزة الواسعة، وأرفع قبتي، وأنطلقُ لا ألوي على شيء. لم يكن أهل البيت قد استيقظوا بعد. سأفاجئهم بالخبز الطازج. جرادٌ وقُبّرات، معاً أو متعاكسة في غناء كمنشار باذخ، يحاولون تقطيع ضوء النهار، تجاوزت الحَشَفات. حدبتها ترتعدُ تحت سراب الحرارة. أمام الحائط الحجري المحاذي للدير، أستمتع بالظلّ استمتاعي بالشراب. يختلط كل البارحة بالآن. سعيدٌ، أدوّس نحو عندنا [بيتنا]. القهوة بالحليب. الزبدة ومربى الفريز، وفوق صدري حُرقة لذيذة، كما لو دسّ أحدهم قطعة من شمس تحت ملابسي.

***

مَلفوف

يبدو لي أن *سيلين* Celine يتحدثُ عنه بوصفه رائحة الفقر المُجَفَّف. كحساء، وفي كل وجبة، من دون لحم لإغنائها، والتي يتعمشق شذى هيكله على الجدران المتضخمة لبيت الدرج وحجرات الخدمة، والأدوار العلوية، وعلى الأسقف المنخفضة لغرف الخادمات، ومساكن البوابين العفنة، لينتهي الأمر به إلى دخول كل شقّ كالملاط الذي لا فاعلية له. نوع من هوية للبؤس. قل لي ماذا تأكل، أقل لك ما لن تكون عليه أبداً. لا يعادلُ خجلي، وأنا طفل، من شمّ الملفوف، سوى رغبتي في أن آكل منه، إلى أن ينفجر كرشي. نعم. حساء بالملفوف. ملفوف باللحم. أرنبٌ بالملفوف. ملفوفٌ بالدهن. ملفوف بروكس مقليّ في المقلاة، مع احتفاظه تقريباً بِلُبِّهِ نيئاً تقريباً، وحده أو أن يُطهى على نار خفيفة لفترة طويلة في طنجرة، فيعلق القعر على شكل سكّرٍ محروقٍ دسمٍ تتركّزُ فيه كل النكهات. خذلني شَعري وملابسي بعد الظهر كما تخذلنا هبرة سمك الميرلان المقلية يوم الجمعة. لكن، ذاك اليوم، كانت تفوحُ منا جميعاً رائحةُ النتن، وكذلك المعلم. أما الملفوف فغالباً ما أكون منفرداً برائحته، ويتفاخر الناس بإغلاق أنوفهم عند مروري. الملفوفُ المبّرد أكثر فتكاً، إذ دائماً ما يبقى منه شيء ما. آثار الجريمة. سحبٌ خاملة. إنه قاتل فاشل لا يسعى إلى إخفاء الأدلة. وهي أيضاً رائحة بعض العجائز الذين لم يعد أحد يحبهم أو يقوم بزيارتهم. رائحةُ المحكوم عليهم بالإعدام. رائحةُ من يتردد على بيوت المتقاعدين، والسجون، كما لو أن الملفوف يتلاءم مع فضاءات الاعتقال، ويعرف وحده كيف يرافق الغمَّ

والعقوبات طويلة الأمد، ونهايات الحياة، والحيوات المُحطّمة. الحيوات المراقَبَة، الحيوات المخنوقة، الفاشلة، المسحوقة. والمحتضرين أيضاً. الملفوف جزءٌ من الحُكم. وحتى حينما لا يكون موجوداً، أو لم يوجد قطُّ، يحدث أن نشمَّهُ، رغماً عن كل شيء، ورغماً عنه، في الغرف التي لا نعرّضها للتهوية، وفي الجوارب المتسخة، فوق الأجساد الرمادية، تحت الآباط، والتنانير، والكلاسين، والضمادات. عنيد حتى في غيابه. باختصار، إنه قليل الشأن؛ بحيث أن روائح أخرى يمكنها تقليده والاستيلاء على هويته. في الحقيقة، إنه لا أحد، ولا شك أن هذا هو السبب الذي جعل منه، لزمن طويل، وجبةَ من لم يكونوا شيئاً، ولذلك يلتصق دائماً بجلودهم. إنه كائنٌ مكروهٌ مُستنكرٌ. مُفرَدٌ. ضعيفٌ. لا ينظر إليه أحد. ما زلت، حتى الآن، آمل أن يفوح نتن الملفوف مني.

* * *

سيجار

هو ليلٌ واستوائيات. ليلٌ بهيمٌ أشبه بالخميرة، ودافئ أيضاً، بل في الحقيقة أكثر من دافئ، مُدثِّر. أصبح الليل دِثاراً جسيماً. إنه يُقَنِّعُ من لا عمل له، الهائمُ على وجهه في المدينة المستيقظة. *هافانا، ترينيداد، سانتياغوكوبا*. مدن ليلية، ليالٍ شهوانية ملطخة بالموسيقا. في كل مكان. تأتي، وتخرج وتلُفّ، وتجذب وتداعب. الموسيقا والرقص وحلقتهُ التي تنضمّ إليها الأجسادُ في أصغر الحانات، وأقل الساحات شأناً. يشرب الناسُ *الموخيتوس* ورؤوسهم مقلوبة. نبحث في السماء عن النجوم، لكن النجوم هناك، قريبة منا، في العيون، وفي الشفاه، والأكتاف السوداء التي تلمع بعرقها، والحناجر الميّتة، والأفخاذ المبتلة التي تلتصق الأثواب بها. أذهبُ إلى الشوارع لأسكر بلقاءات كنائس مُغلقة ذات ملاطٍ أبيض. الليل الكوبي فوّاح برائحة الروم، والعرق والسيجار، وجمر الأفران المرتجلة في براميل زيت المحرك، حيث تطبخ البيتزا كيفما اتفق، خالية من البندورة والزيتون. فتيات يعبرن وفي أفواههن ضحك خفيف، وخلفهن دخان مرعوب، يتحرش بهن بما يحمله من رائحة الكاكاو المشوي، والشوكولا الفاترة، وأوراق ندية قضمتها النار، وكحول معتّق غنّجته غَيْضاتُ النبلاء. سيجار. قناديل الليالي، ومصابيح ضخمة عابرة لبحارةٍ من دون مراكب، يشيرون بأصابعهم لكل من يمسك بهم، وبالشفاه لمن يعانق أجسادهم المتطاولة، الحيّة، الخالدة. الشراب والرقص. والتدخين، والشراب أيضاً، والرقص أيضاً، والتدخين حتى توهّج غاية مضطرمة، والانعزال في فردوس من

الغيوم التي تؤرجُ أحياناً الجِلدَ والفراء، فراء النساء، أو الذئاب، الدُبالُ والخبز المحمّص، ثمَّ، حين يُزيح ضوءُ الفجر عتمةَ الليل، كقطرة العرقسوس في كأس من الحليب، يذهبون إلى البحر الذي يصفق الأرصفة بأمواجه. يستنشقونه بعينين مغمضتين، مُتعبتين، وأذرعٍ مفتوحة، ويسمعون نبضهُ الذي يضرب الحواجز، ويضحك مع أولى ضحكات الأطفال الذاهبين بصدورهم العارية إلى الصيد راكضين.

مقبرة

في الجانب الآخر من الطريق، مقابل بيتنا، يمتدُّ ميدان الموتى. هؤلاء يرتاحون تحت بلاطة من المرمر أو الغرانيت، أو الكلس الأشقر الذي صيّرته الأمطار والزمن رمادياً، أو في بعض الكنائس الخاصة بالأغنياء منهم، الذين لم تنقذهم جواربهم الصوفية من الرحلة الأخيرة. جوارٌ هادئ، وأفقي ومزهر. مدينة صغيرة بأحيائها البائسة، المبقورة، الهابطة أو المدمَّرة، وترى قبوراً أخرى للموسرين، مُصانة، وأنيقة تقريباً. هذان طريقان أو ثلاثة طرق عريضة أنيقة، يصرصر الحصى فيها تحت الخطى بكثير من التهذيب. في الأسفل، الموتى الشباب، أو المسنّون، وثمةَ عظام مُفككة، أو حديثة الدفن في تربة مُقلقلة تحتاج إلى وقت لتستعيد راحتها. في الأسفل باقات ورود لا تلحق بالراحل إلا بعد بضعة أيام، حيث تبدأ بالتعفن أيضاً. رائحةُ قماشِ القنب. ثمة تحلل نباتي يعود إليَّ أيضاً، وماء راكد، أصبح أخضر مزرقّاً، ومائلاً إلى الاصفرار في مزهريات من زجاج، أو حجر. هذه أكداس من الأضاليا الذابلة، وتلك أكوامٌ ذابلةٌ من الآس، والبيجونيا، والدلبوث glaïeuls، والمارغاريت، والقرنفل والزنبق ذي التيجان المتعفنة التي يغطيها صمغ فاتر، جعلته ألوانها الحيّة أو النقيّة كعروسين هجرهما غداة يوم زفافهما أزواج شباب متقلبون، لتخلط من الآن فصاعداً في تدرجيّة لونية من البيج الهامد، مُتخليّة عن اختلافاتها وطبيعتها. مِنقعَة. هكذا نُسمي مقامها النهائي، حينما انتزَعَتها أيدي العائلات آسفةً، من لحودها، خائبةً من قلة تهذيبها، ورمت بها، من دون تأنيب ضمير، في هذا المربع الإسمنتي، الذي

تحول إلى قبرٍ لها هي، تحتفظ فيه مثلها مثل أي آيلٍ للموت، لمدة معينة بشكل أجسادها،، هذه الباقة المركبّة التي ضمتها. لكن أيضاً، تولدُ في بعض الأحيان، بعيداً عن روائح موت نباتي مُقزّز، يحمل إلى أعماق حنجرتي ارتقاء عصارة صفراوية محلاة بشكلٍ كريه، عطورٌ شابةٌ من صخرة دافئة، فوق غرانيت القبور القديمة الموشاة بالعشب، وقليل من الماء في قشرة رقيقة معرضة لشمس الشتاء القاسية، تنشرُ شذى نبع في الغابة، ويكفي أن أغلق عيني حتى تتوارى المقبرة عندئذٍ تحت أغصان ملتفة في غابة سماوية؛ حيث أصبحَ الموتى أشباحاً لا يتألمون، وأجسادهم أشعةُ ضوءٍ لا تفقد نضارتها أبداً.

***

حلاق

يقع صالون الأب هانس في الزاوية التي يتقاطعُ عندها شارع جان دارك مع درب البريزونييه. يكفيني، إن أردتُ الذهاب إليه، أن ولوج شارع سان دون، والسير فيه حتى هذا التقاطع. أذهب إليه وحدي، ولدى وصولي أعطي الحلاق قطعة الخمسة فرنكات المشبعة بحرارة راحة يدي التي ضغطت عليها بشدة، خوفاً من ضياعها في الطريق. أجلس في أحد الكراسي الأربعة بانتظار دوري. الأب هانس يقص الشعر وهو يدخن ويرقص. رجل لا عمر له. يرتدي قميصاً فضفاضاً من النايلون الرمادي. قصير، نحيف، شعره فضيّ مردود إلى الخلف، وغالباً ما يكرر تمشيطه، وعيناه دائماً مُتغضنتان بسبب دخان سيجارته الغولواز التي لا تفارق الطرف الأيمن من فمه. يدور حول من يقص له شعره متقافزاً، بلطافة الملاكم الذي تُشَكِّلُ حركة الساقين عنده النقطة الأقوى. يتكلم كثيراً، إلى الرجال طبعاً، إذ لا يوجد غيرهم في أغلب الأحيان. أما أنا، فلا يبدو أنه يراني إلا في اللحظة التي يجيء عندها دوري: «لك الآن يا ولد!». يُجلسني فوق مقعد دوّار، يرفعه إلى أقصى مداه بحركة من قدمه، كما لو كان ينفخ فرشة هوائية بدواسة هيدروليكية. وبحركة اسنعراضية، بطريقة مصارع الثيران أو الساحر، يطيّر حولي مِشلحاً خفيفاً. كنت أختفي تحته باستثناء رأسي ونقرتي. بعد أن يستكمل تحضيراته، يفصل عُصابة من ورق الكريب الثخين الأبيض المزين بالوردي من لفةٍ موضوعة فوق منضدة الأدوات، ويحيط عنقي بهذه الياقة الصغيرة المطاطية المرنة والخشنة في الوقت نفسه،

فيتهيّج ذقني بشكل مُحبب. طيلة نصف ساعة، أسلم نفسي لمقصّاته، التي يجب أن يجعلها تغني وهو يقصّ الهواء هنا وهناك، كما لو كان، مثلي أنا، يقص خُصلاً شفافة من شعر أشباحٍ مُشعّث. دخان السجائر الملفوفة والجاهزة، الكثيف واللاذع، يشكل سقفاً متحركاً يتنقل حسب تقافزه. أحب أن أستسلم بين يديه، مثلما أحب اليوم أن أترك نفسي تماماً بين أيدي الحلاّقات والمدلّكات، ومُجبّر العظام، ومُطبّب الأرجل، والمعالِجة الفيزيائية، التي غالباً ما تكون ثرثارة ولذيذة. أكتشف جمجمتي التي تشبه رأس الدوريّ، كلما سقط جزء من شعري الأسمر الأشقر حولي.

أفضلُ اللحظات لم تحن بعد. بعد انتهاء القَصَّة، يقوم الأب هانس بتمزيق ورق الكريب الذي بدوت فيه كأحد جُلساء شارل التاسع، فيدعكه، ويرمي به في سلة القمامة، ثم يتناول قارورة معدنية منفوخة، تنتهي بمنقار دقيق وطويل، تتدلى من طرفها الآخر أجاصةٌ ضخمة من الكاوتشوك الأحمر المشقّق إلى حد ما. عندها، وهو ما يزال حيوياً، يتقافز حولي ضاغطاً على الأجاصة ويطلق رذاذاً كغيمة مبللة بماءٍ باردٍ تفوح منه رائحة الورد ومُلمّع الشعر، وهي، في الحقيقة ليست أكثرمن رائحة كلب عجوز. يهطل هذا المطر الميكروسكوبي فوق شعري الحليق، وحاجبيَّ، وجبهتي، وفمي المغلق، ورقبتي، مثل مُزنة منعشة قُطيراتها غاية في الدقة.إنها عمادة عَلمانيّة شهرية. رائحتكَ طيبة. أنت جميل، تقول لي أمي عند عودتي. أصدقها. ثمة عمرٌ نُصدِّقُ فيه دائماً كل ما تقوله أمهاتنا لنا.

***

مَرْهم شمسي

أمي تحذر من الشمس بوصفها عدواً مُقاتلاً لا يستسلم. تربيتُ على هذه الخشية الدائمة من أن تغطيس الجسم الساخن جداً فجأة في مياه باردة يعرض الإنسان للموت. وعلى الخشية من الحروق أيضاً، والأضرار الجلدية العصيّة على الشفاء. عليَّ أن أنتظر فترةَ بعد الظهر لألتقي رفاقي في المسبح. هو، في الحقيقة ليس مسبحاً، بل مجرد استحمام في مياه جارية، أو بالأحرى مياه بطيئة، ذات لون أسمر تُرابي، هي تلك الجارية في نهر *مورث*. لا أكثر ولا أقل. فقبل عشر سنوات، شُيّدت فوق أحد فروعه، عند أعلى السد، حواجز من الإسمنت المسلح لعزل الأحواض عن بعضها. على حافة النهر صفّ من الغرف الصغيرة لخلع الملابس فيها. وهناك صندوق تأخذ منه تذكرة، ومدربون للسباحة، ولم أعد أتذكر إن كان هناك مشرب صغير. أشجار عالية، من الصفصاف والدردار، تداعبُ ذُراها المتشابكة عنان السماء، وتظلل كل ما ذكرت.

كنت أضربُ الأرض بقدميّ لأنَّ الوقت كان متأخراً. أجبرتني أمي على قيلولةٍ لا تُحتمل، لم يغمض لي جفن خلالها. في الخارج، وكنا في منتصف شهر تموز، أسمع صرير صراصير الليل والجراد. إنها العطلة التي لا تنتهي. ارتديتُ لباس السباحة فوصل حد السرة، دلالة على نحافتي. وانتعلتُ حذائي البلاستيكي. بين يدي أمي ردّاذة بُرتقالية اللون انبثقت منها لؤلؤة ضخمة بيضاء لها قوام رغوة الحلاقة. سحقت اللؤلؤة فوق جسمي. ما

أحلاها. مدّت هذا المرهم الذي أصبح فجأة غير مرئي، بعد أن ذاب بأعجوبة فوق جسمي كله. قرأت اللصاقة فوق القارورة: عنبر شمسي. بدا ذلك بمثابة عنوان لقصيدة، كتلك القصائد التي أتعلمها كل أسبوع من تأليف إميل فيرهايرن E. Verhaeren، وموريس فومبور M. Fomber وخوسيه – ماريا دوهيريديا J. M. De Heredia، وجان بول – توليه J. p. toulet. أغمضُ عينيَّ. أتنفس. خلاصة دهنية إلى حد ما، وبالكاد مُمَسّكةٌ. رائحة خِدرٍ تركي. وبمثابة امتداد لحرارة النهار، ثمة فتور من الألفة، أو ذراعٍ مُداعب. فيما بعد، اكتشفت [لوحة] مستحمّات الأب إنغر *Engers*. سأعيرها هذه الرائحة. أخيراً أنا مستعد. أركب دراجتي، وأمضي. الريحُ تستنشقني. عمري عشر سنوات. الحاضر هدية فاخرة.

***

زَمنان

قد لا يكون الشباب سوى قصة ضجيج ودخان، وليس دائماً قصة اندفاع. إنها بداية سنوات السبعينيات. كان المهم إحداث فرقعة وإسماعها للآخرين. كانت الدراجات النارية الصغيرة، الرمادية أو الزرقاء، ذات حرّاقات مصقولة، وعوادم مفكوكة، مثقلة بوسائط القيادة، حيث نضغط بالمقود فنقرّب القرنين من بعضهما، بحيث يمكن إمساكهما بيدٍ واحدة، وهو ما يجعل كل منعطفٍ خطير. مقعد يتسع لشخصين، ذيل ثعلب فوق الواقي الخلفي من الطين، ومرآة عاكسة مُزيّنة بحاضنة مُهدّبة، وسند صغير لإمالتها كما في نوع هارلي. الأنواع المتقدمة منها لا تتكون إلا من الأساسيات مثل جيتان تيتسي، وفلاندريا، مالا غوتي، أو البوليد المُنمنَمة مع سعة أسطوانة لا تتجاوز ٥٠ سم٣، يُملأ خزانها بخليط نصفهُ من البنزين، والنصف الثاني من زيت المحرك، وهو مزيج مزدوج قوي ينجمُ عن احتراقه روائح فواكه زيدت سخونتها. نحب الحفلات الراقصة، أو كما نسميها بالعاميّة Baloches، وفرقعتها المزودة بالشرائح المعدنية والطاولات المدولَبَة، تقرع كل مساء سبت في مكان مستطيل مُسبق الصُنع ينتقل بين المدن الصغيرة والقرى، ألحان كلاسيكيي الروك أند رول الفرنسيين الذين يعدون بمثابة أنصاف آلهة، إضافة إلى المنوعات الفخمة لدروبي Drupi أو مايك برانت، التي تصبحُ قلوب العذارى وأذرعهن أكثر طواعية على إيقاعها: vadovia، دعني أحبك، ومن يعرف؟ نراقب كل هذا من بعيد، حيث كنا ما نزال ضائعين في عمرنا اللبني. يدور الحفل

الراقص أمام أعيننا، ويبدأ دوران الدراجات النارية المسروقة لتشيع حولها غيمة دورانها الميكانيكي والضوضاء. الأولاد الذين تبلغ أعمارهم العشرين عاماً لهم شعور نصف طويلة، وقصات تشبه قصات أفراد فرقة الروبيت Rubette، أو في أحسن الحالات قُصت على طريقة دافيد بوي حينما مثّل شخصية زيفي ستاردوست، أو كايث ريتشاردر في فيلم Exil on Main Street. قمصان Skai الفضفاضة، وكنزات شيتلاند التي لا تلتصق بالجسم إذ تتوقف فوق الصرّة، وبناطيل من نوع خفّ الفيل مثبتة بحزام ذي إبزيم كبير، وأحذية بوردو بأطرافها المستديرة وكعوبها العالية. أبّهة مولبير، كما كان يقال. وكنا نرى أفخاذ الفتيات اللواتي كنَّ يرتدين الميني جوب أو بنطلون كارتينغ، وهنَّ يمتطين الدراجات النارية الصغيرة. ينتعلن أبواطاً، ويرتدين قمصاناً من الساتان قبّانها قصيرة وضيقة (كول بل أتارت)، جفونهن خضراء، ورموشهن مخضبة بالريميل، يدخنّ سجائر فين ١٢٠، أو رويال بالنعنع طويلة جداً. أما عشاقهنَّ فيدخنون سجائر الغلواز. صبيحة اليوم التالي، تكتب الصحف أن عصاباتٍ متنافسة تواجهت بضربات عنيفة بالرؤوس، والبلطات، أو جنازير الدراجات، أمام مكان الحفل الراقص أو حتى في داخله. نهيم في الأنحاء لنتعرف على آثار الدم فوق الأرض.

لم نتمكن إلا مِن تنشق رائحة البيرة الفاسدة، والبول، والقيء. مساءات الصيف تشهد، في طريق سومر فيلر، أمام بيتنا، عبور الآلات المتحركة وعودتها، في سباقات تصم الآذان بصريرها، ودخانها المُتقد، والتحديات الحمقاء التي تهشم أكثر من واحد فوق شجرة دُلب حيادية، أو تحت

عجلات إحدى الشاحنات. أعتقد أني أشتم في هذه الروائح الساخنة المنبعثة من تلك الدراجات النارية المحمومة عطورَ حياة البلوغ، كما نحاول استنشاق ما سيكون عليه اليوم عند بزوغ الفجر. يكاد صبري ينفد لامتطاء إحدى هذه الآلات، والشعور بعفن كراجها والريح تنفذ من شعري. ما يزال دومبال محافظاً على تقاليده في ركوب الدراجات ذات المحركات الصغيرة الصاخبة والتي تنتشر في المنعطفات التي يدخلها، وركبته تحتك بالأرض كما في المسابقات الكبرى، حيث ينطلق دخانها الأزرق الناجم عن الزيت المحروق. الدراجات الصغيرة التي يقودها الأبناء اليوم استبدلوها بدراجات الآباء النارية الصغيرة، ولم يحتفظوا من عصر مجدهم أو مشاحناته إلا ببعض نُدب السكاكين، وعيونٍ موشومة تحت الوجنتين، وفقدان ثلاثة أسنان على الأقل، وسلاسل فضية وأحذية غريبة. بطونهم التي كانت عارية ومستوية أيام زمان، انتفخت اليوم تحت سترة رياضة المشي (جوغينغ). تراهم يدفعون بقطّاعة العشب خلف بيوتهم الصغيرة، فوق حصتهم المربعة الضيقة من الأرض الخضراء. وأحياناً يركعون لضبط محركها الذي صار يخشخش ويستهلك المزيد من الوقود، ثم يُشعلون بقضيب اللحام الفحمَ في شواية لشوي النقانق المُجَمدة، ويشربون علبة أو علبتين من البيرة ابتاعوها من متجر البضائع بأسعارٍ مخفضة. ثم تلحق بهم صاحبة لباس الجوكينغ نفسه الذي يرتديه زوجها. كانت سابقاً تشبه جويل، مغنية كان يا ما كان، والتي توفيت في السابعة والعشرين من عمرها. اختفت الحفلات الراقصة منذ زمن طويلٍ، لكن هؤلاء الناس ما زالوا يستمعون إلى أغاني جوني هوليداي. وأحياناً، يوم الأحد، يسيرون في

مسالك أحد أسواق البراغيث في قرية يقصدونها لأنه ينبغي عليهم أن يفعلوا شيئاً ما، فيقعون على دراجة من نوع Gitane Testi معروضة للبيع، ملقوحة فوق رصيف بين صندوقين من مادة مصنوعة من الفلين والمعاطف العسكرية. يتوقفون وينظرون إليها، فتبدو لهم عندئذٍ صغيرة جداً. كانوا يظنونها أكبر من ذلك بكثير. كالحياة.

***

"أدواش" جماعية

لا أملك من أحاديث كرة القدم سوى ذكريات موحلةٍ وباردة، ملوثةٍ ومنفِّرة. ليس عندي سوى أيام أربعاء طويلةٍ من التدريب تحت سموات من الفحم، والأمطار العنيدة، والاندفاع السخامّي للقطارات التي تمر ليس بعيداً عن الملعب، قاطرات ميشلين حمراء وسكريّه تنشر دخاناً من المازوت، ونباحات مدربنا، ذلك الرجل القصير، وصاحب الظهر القوي الأشبه بكلب الأوكار، والذي يجعلنا نظن أنفسنا جيرو مولر، وبول برايتنر، وجون كروف، أو دومينيك باتناي. تقام المباريات يوم السبت، لكنني لا أشارك فيها أبداً. أقبع جالساً فوق مقعد التماس، أحمل ما يمكن تسميته بالبديل، مستعد للقفز كالحيوان الكاسر فوق الأرض، مصدقاً أكاذيب المدرّب بقوله لي: «كلوديل، أُبقيك عنصراً احتياطياً، فأنت رهاني الأخير!». يركض رفاقي، ويصيحون، ويأملون، ويضربون الكرة، ويحققون الأهداف، ويتعانقون. أما أنا فخارج هذا كله. منسيّ. مُتجاهل. الرهان الأخير لا خير فيه أبداً. يحرمونني من الاحتفال. أعيدُ طيَّ لباسي الرياضي النظيف في حقيبتي. ليس على أمي غسلهُ. هي وحدها، أسعد الناس. أواسي نفسي بجمع سمات بانيني التي تحمل صور معبودينا. وهي لاصقة تفوح منها رائحة البلاستيك. لم يفتني أي تدريب خلال موسمين، أقدّم ما عندي باندفاع وأنفّذ جميع التعليمات. أريد أن أكون لامعاً، يلاحظني المدرّب، كي أكون في وضع ثابت فوق ورقة المباراة التي تعلن مساء يوم الجمعة فوق واجهة مقهى لوغلوب للسبت القادم. أحياناً يكافئني المدرب بعجلة: «لقد

أثرت إعجابي مرة أخرى يا كلوديل!». أعدّها بمثابة تشجيع، بينما كان، في الحقيقة، يتهكم على عدم نفعي الذي جعلني، مرة أخرى، أحقق هدفاً ضد فريقي. في تشرين الأول، تشرين الثاني، كانون الأول، كانون الثاني، شباط، تصبح الأرض طينية، فترانا ندفع الكرة كما يدفع المحكومون بالأشغال الشاقة نقّالة مليئة بالحصى. عند نهاية الجلسة (الاحتفال) نصبح أشبه بآلهةٍ بربرية، يغطيها الماء والتراب. المشالح ليست مدفأة. وتسمع رنين مسامير التعليق فوق الأرض. نرفع ملابسنا الرياضية الثقيلة التي أصبحت كلها سمراء من نمط واحد. ينطلق من أنفاسنا بعض الضباب. ثمة رائحة شحم حيواني، وكافور، ونعناع، وزهرة العُطاس، والعُطرة. كل منا يستخدم بلسم كاستور لتسخين عضلات أفخاذنا قبل أن نبذل جهداً. لا أحد يسمع الآخر. صرخات، وضحكات، وتدافُع، ومشاحنات مُصطنعة، وشتائم لطيفة، وجُشاء، وضراط، وسخريات. كلنا عراة. ونحن متجهون نحو الرشاشات (الدوش)، ويدا كل منا تغطي عضواً تشكّلَ حديثاً كحلزون مضحك لنحافته وخجله، أملط، ومُخجِل، بينما آخرون مثل ابن فواري الفخور بما لديه، فيعرضون قضباناً تنافسية، كالموز، شعورة ووقحة، وساخرة، يمسكونها بأيديهم، ويرونها للجميع، ويجعلونها تدور. الماء الحارق يخرج من منافث صدئة. الجدران من الخرسانة، والأرضية من الإسمنت. نختفي في سحابات من بخار لأشبه بالحمام التركي. كلنا يستخدم صابون بالموليف. تسيل الرغوة بين أرجلنا. فجأة يصبح الجو حاراً. لكن على الرغم من العطور التي تبقي الحمام نظيفاً دائماً، فإن أرضيته القديمة تدل على حقيقة المكان، حيث الرائحة الكتيمة للبرد الرطب والبلاط الذي تتسم به الأبنية القديمة، والتصدّعات التي هجمت عليها آفة

العفونة، والبخار المنتشر. أغطيّ عضوي الصغير بأفضل ما أستطيع، وأحلم بالسبت القادم وأنا أصوبنُ جسمي. أدخلني المدرب إلى أرض الملعب، ولم يبق على نهاية اللعبة سوى عشر دقائق. سجلنا ٦ أهداف مقابل صفر. أركض في كل اتجاه، وأوزع الكرة. أنفذ تمريرات حاسمة. ضربات رأسية صعبة. وأكرر الضربات كما جان ميشيل لاركيه. ارتفعت النتيجة بفضلي. لم نكفَّ عن تسجيل الأهداف. الجمهور يصيح باسمي: «كلوديل! كلوديل!» يحملونني منتصراً، بعد صفارة النهاية. وأخيراً ضرب الرهان الأخير ضربته. وعما قريب، ستتصدر صورتي سمة vignette بانيني.

***

شراشف ندية

مساء كل أحد تغطي أمي الأسرّة بشراشف نظيفة، انحَبَست فيها الريح خلال النهار كله. أحبُّ الشتاء أكثر من هذه الشراشف الندية، بعد أن تكون ريح الشمال قد طرّقتها، وجلّدتها في بعض الأحيان، وهي تحتفظ من هذه الصفعّة بشيء ثلجي وجليدي لا أدري ما هو، يزيد من خشونة جلد قماشها المُحبحب والأبيض القديم. لم أك أستمتع أبداً بالنوم وحيداً. حتى وأنا طفل كان ينقصني جسد آخر، بحرارته، وقوته، ونعومته، ونَفَسهِ الفاتر، وخفقات قلبه. غالباً ما يجعلني النُعاس أخشى الأسوأ. ليس الموت، بل الهجران، والوحدة التي لا نهاية لها. غداة اليوم التالي، عليّ الالتحاق بالمدرسة الداخلية، ومهجعها الواسع، وأرضيته اللامعة، وخزائنه المصنوعة من خشب سيء، وأسرّته الضيّقة. أحدُ المراقبين العامين اسمه فياكر. إنه يرهبني. يقال إنه عسكري سابق. كما يقال إنه مولعٌ بالموسيقا وخبير فيها، ويعزف على آلة الكمان أحياناً.كان يضربني والآخرين، من دون سبب، حينما يكون سكراناً. أبكي كل مساء بصمت، مُدارياً دموعي عن رفاقي ومعلميّ، السيد فيكس والسيد بوسو. يجتاحني اليأس في هذا المكان الذي يتقيّح ضجراً غير بشري. لكن عندما يحلُّ مساء الأحد، يصبحُ النوم لذّةً في الشراشف الندية لأني أُغرقُ في الليل وفيَّ عطر هذه القارة الواسعة التي اخترقها القماش المشدود في الهواء الطلق خلال النهار. يبدو لي أن وجهي يتنفس حينما يرتاح فوق الشرشف الندي، وأطفئ نور طاولتي الليلي. أشعر إن العظمة البروسية، والروسيّة، والمنشورية، والمونغولية، والسيبرية، كلها

مجتمعة وساحرة لتحقيق سعادتي الأنانية. ليست هذه رائحة قماش مغسول ونظيف تلك التي أتنسمها، بل رائحة جغرافيا أرضٍ وريح، برية وفضفاضة، إنها مدى لانهائيّةِ الحكايات، والخرافات والأناشيد والصور التي قرأتها ونظرتُ إليها، والتي تجعلُ مني، تحت السطوح، وعند أولى خطوات النوم، في هذا السرير الممدود بشراشفه النظيفة التي زيّنتها جداتي، وخالاتي، أيام زمان، من ورود، ومُنحنيات وأرابيسك بإبرهن الصبورة، رحلة سماوية ومطمئنة. كائن هش يعرف أنه كان ذات يوم محاطاً بأهله سعيداً.

* * *

عطارة

هذه هي المرة الأخيرة التي نُسلِّمُ فيها سجل وفيات التجارة الصغيرة مثل محلات: الخردوات، والأقمشة ومستلزماتها، والخيوط الجلدية، والفاكهة، وبيع الكروش، ولحم الحصان، والبهارات، والحبوب، والألبان، والقبعات، والبازار، والملابس المنسوجة، وتصليح الأحذية، والعطارة. الزمن يغلق الأبواب، ويُنزل اللافتات من دون إخطار بالوفاة يضعه في أي مكان، وسرعان ما ننسى توجيه التعازي. لكن لمن نوجهها؟ قليلة هي الدموع وقليل هو الأسف. بل ترانا نفرح لتجمع عدد كبير من الناس المتنوعين في مكان واحد صاخب. يتميز عصرنا المترحّل هذا بميزة جديرة بالذكر، هي أنني ما زلت اليوم أعيش حيث ولدت. لم يتغير حجم المدينة. كل ما في الأمر أن صالونات الحلاقة، وفروع المصارف تكاثرت في فضاءاتها المهملة. مع ذلك أعرف أن خلف واجهاتها تقبع متاجر شبحيّة ما تزال مستمرة في بيع بعض الزبائن القليلين الذين لا يعادل تحفظهم سوى شفافيتها، مثل الأزرار الصَدَفيّة، والخيط، وبذور القنب، والأحزمة الجلدية، والحبال الرفيعة التي تباع بالأمتار، وأحذية الرافيا (المصنوعة من النخيل) والمسامير التي تباع بالصاع، ونقانق الحصان، والزعرور البستاني، وكروش الثيران، والرضاعات. تتوقف ضوضاء الشارع ما إن تدفع بعض الأبواب. جرسٌ خشنٌ يقطرُ بنغماته الناشزة. ثمة نظرة تزدرينا خفية تحت نظارات سميكة. عطارٌ بصدرة بيضاء، قاسٍ ومنشغل، ولا أشكّ أبداً بقرابته مع

أبعد الكيميائيين الكبار في زمانهم. اسم المتجر واسم صاحبه يعيدانني بعيداً إلى الوراء، إلى زمن كان يُطلقُ على الصيادلة فيها اسم العطّارين. العطارة بقاء. والعطارُ أحد الناجين من الزمن. إنها مكان النظافة بلا منازع، حيث تجد ما تستخدمه لتنظيف ما يتسخ من جلدٍ وخشب، وحديد، ونحاس، وبلاط، وواجهات زجاجية، أو ما يلزم لسدّ الثقوب: كالتمديدات، والبالوعات، والمراحيض. والمساحيق، والرسوم، والمُذيبات، والمواد الحالّة، والصاقلة، والصابون الصلب أو السائل، والسموم، والأسمدة، ومزيلات الأعشاب الضارة، ومواد إسقاط أوراق الأشجار، وقاتلات الجرذان، والنيترات، والسلفات، والكلورات، والصودا الكاوية، والكلس الحيّ، وطلاء الأظافر، والدهانات، والقطران، والمعاجين اللاصقة. لا شيء هنا يؤكل، اللهمّ إلا من لاعبين بائسين يودون مغادرة المباراة. كثير من العُلب، والقوارير المزيّنة برؤوس الموتى. العطّار يعيش بطريقة خطيرة، ومثله الزبون. فقد ينبثق عن هذا المختبر الفوضى، والانفجار، والتسمّم، والموت المفاجئ، والصناعيّ والفعّال، أي الجريمة. مع ذلك تبدو الرفوف هادئة. يخيّم الترتيب عليها، كما تسودها الجديّة. يحقّ للّحام أن يمزح، واللبّان أن يكون فاحشاً، والسمّاك أن يتكلم بصوتٍ قوي ويترنّمُ بلحنٍ دارج. أما العطار فيتعامل مع اللغة كما يتعامل مع مُنتجاته. فهو لا يرفُع صوته ولا يزعزع الكلمات. مستعدٌّ للشهادة في محكمة التمييز. هناك ثمة كنيسة من نوع آخر، مِخَبريّة وصارمة، حيث المِنخرُ يُصقل لدى مُلامسة فَوَحان المُنظفات، ويميل نحو الأصماغ وطلاء الأظافر الجاذب للأصماغ، رائحة الزبدة، والأمونياك، والعضو غير المغسول جيداً. وللصوابين السائلة عبقٌ

أشبه بزرانيفِ عسل الصنوبر، لا تشي بطبيعتها اللزجة حينما نخففها بشيء من الليمون. نتدثّرُ بكيمياء يوميّة، وفي حالة اصطناعيّة متزاوجة مع مساحيق وسوائل، وغازات، ومواد صلبة، وعندها، ينبثق فجأة شعور باكتشاف وجه آخر للعالم. وجهٌ يبعث على القلق. وجهٌ معدنيٌّ لاإنساني تقنيتة تافهة، لكنه قد يكون مُدَمّراً.

* * *

كنيسة

لطالما نسعى إلى صناعة مفاتيح لا أقفال لها. أحببتُ الكنائس دائماً، وكثيراً ما ترددت إليها، حينما كنتُ ما أزال أؤمن بالله، واليوم أيضاً، حيث لم أعد أؤمن به. يُعجبني بروتوكول صمتها العجيب، وانسحابها من العالم أيضاً، حتى في صُلبِ أكثر المُدن ضجيجاً. جدرانها تبعدكَ عن الزمن، وجنون الأشياء، كما تنبئك بجنون الكائنات. كنت صغيراً حينما انضممتُ إلى أطفال الجوقة، فأدهشني جمال مسرح الصلاة، كما يقول جان جيونو، وأنا أتنسم الشمع الساخن وهو يتساقطُ دموعاً بطيئة في أحضان شمّاعات كبيرة تُمسك بها أيدي شمعدانات صغيرة من الفضة، وأبخرة البخّور الكتيمة الكثيفة، والملتوية حينما تنطلقُ من الحرّاق كنفسٍ مرئيّة لشيطانٍ مُضحّى به، ثم تهدأ بعد ذلك حينما تعلو كسحابات وَرِعةٍ لِتُسائل لامبالاة الزخارف الزجاجية الملونة. كَنونات الكهنة، والقفاطين، والقماش المُقصّب فوق الصدور، والكتفيّات التي يضعها الرهبان فوق أكتافهم، والمُخرّمات، وأحزمة من الأطلس أو حبل غليظ. الملابسُ المُنشّاة مرتبة في خزانة خدّام الكنيسة المرتفعة، مصقولة بالورنيش وتفوح منها رائحة ماء الكولونيا، والخُزامى، فتتشربها الأقمشة. نرتديها بصمت، تحت النظرة الثاقبة والفم النحيل لقائدة مجموعتنا شديدة التُقى: الأم جوليا. شمعة، ورنيش، وبخّور، وملبسٌ مُحتشم نسجتهُ أيد تقيّة، ومربعات حجرية غسلتهُ بماءٍ مِدرار نساءٌ راكعاتٍ بين «أبوينا»، ونفسٌ من فم أبٍ تفوح منه رائحة خمريّة بعد سر القربان المقدس، ثم، ولا سيما،

عقيدة ملايين البشر، أي عقيدة التقوى، الصلبة، والعميقة التي لا تزول. رائحةِ الإيمان، الذي لا يتزعزعُ، بكذبة عجيبة مستمرة منذ ألفيّ عام، ساندَ الكثير من الكائنات، وقتلَ آخرين كثراً.

***

طفلٌ نائم

لا شيء يمكنه أن يقول لنا ما نحن وما كنا، أفضل من رائحة جلد طفلٍ غارق في النوم مرتاحٌ، وفمه نصف مفتوح في سريره، من دون خوف أو خشية أو اضطرابٍ لمعرفته بحضورنا معه، وقربنا منه واستعدادنا لإبعاد الظلمات وتفكيكها أو إنكارها إذا لزم الأمر. حينما كانت ابنتي صغيرة، كنت أدخل غرفتها ليلاً لتصوري أني أسمعها تتأوّه، أو ربما تبكي، فلا أحتمل فكرة أنها تتألم، حتى في الحلم، بحيث أخرج من نومي الهشّ ليلاً كأب وأجلس قربها. ما تزال نائمة على ظهرها، وساعداها في الهواء إلى جانبيّ وجهها. يدان صغيرتان مرتاحتان، وأصابع مفتوحة. خدّاها ناعمان ورموشها الطويلة الأشبه بصرعتيّ شباك هشّتين وناعمتين، مغلقةٌ على عينيها الجميلتين غير المرئيتين. أبقى إلى جانبها طويلاً، أنظرُ إليها كما ينظر المرءُ إلى أعجوبة لا يصدّق تماماً أنها كذلك، من دون أن يصدق، في حقيقة الأمر، أنها حقيقية ومرتبطة بنا بروابط لا شيء يفكّها، ولا حتى الموت، مع أنه قادر على أشياء كثيرة. في الظل الخفيف، أرى صدرها الصغير يرتفع مطمئناً، وينخفضُ مطمئناً أيضاً، ثم يرتفع مرة أخرى، فلا أستطيع الانفصال عن هذه الحركة التي تدل على الحياة، وآمالها، وهشاشتها. أضع إصبعاً فوق يديها. ألامس خديها، وجبهتها، وشعرها الناعم الأسود الحريري الدافئ، ثم أنحني مُقبّلاً عنقها بلا ضجة. كما لو أني ذاهب نحو الطفلة العارية النائمة في حضن أمها، العارية هي أيضاً، في لوحة *غوستاف كليمت* الجميلة جداً: لوحة *أعمار المرأة الثلاثة*، التي ترسم لحظةً من حميميةٍ

يوميةٍ، من إنسانية عالية ثرّة، رسمٌ للذةِ فتور الأجساد والعَرَق، للثقة بأكثر لحظات النوم حقيقية، تلك اللحظة التي لا يمكن فيها لأي شيء أن يصيبنا. إنها كسقوطٍ مذهلٍ في أكثر الروائح طبيعية. السقوط من الحياة إلى بداياتها، حينما لا تكون سوى رخاوة، تتغذى على مداعبات وحليب، وابتسامات، وهدهدات، وأيادٍ ساهرة، تطمئنُ وتحمي، ريح الأزمان الأولى، والجلد اليانع، ومراهم ومسحوق للوجه. رائحة تلك الطفولة الأولى الباقية، الناعمة المُزقزقة، الهادئة، والمطمئنة، التي، مع الأسف، تهرب منا بسرعة فائقة، كلما مشينا في الطريق، ننتصب فيها، نسيرُ وحيدين، وينتهي الأمر بعدم بقاء أيّ شيءٍ مما كنا عليه، مخلوقات ضعيفة، يهدهدنا الاسترخاء الواثق بين أذرع من أنجبونا وابتساماتهم.

* * *

إسطَبْل

إننا نعيش بين طائفة من الحيوانات: أرانب، ودجاج، وبط، وقطط، وكلاب، وإوز، وحبش أيضاً، في حدائق البيوت، والباحات، والمطابخ التي تستقبل الصيصان وأفراخ البطّ فوراً.وعلى مسافة أبعد، لكنها تبقى قريبة جداً، هناك في الحقول والمزارع الأبقار والخنازير، والخيول، والحملان، والنعاج، والماعز، والحمير، والبغال، والبراذين (أولاد الحصان والأتان)، والثيران.أقرب تلك المزارع مزرعة الفراريج الواقعة في شارع ماتيو. ثم الأخرى، وهي ليست أبعد على الإطلاق. ثمة مزارع من عائلة غيّومون، وعائلة روسيل، وعائلة ديهان، في المدينة الصغيرة، حتى في أطرافها، وتختلط بها. في بعض الأحيان، تترصّعُ الشوارع بروث البقر، وزبل الجياد والحمير الذي سرعان ما يتم التقاطه ليرمى به على حواف زهور الأورطاسيا، وشجيرات الورد. تمرّ القطعان، في منظر لاتستوعبه الذاكرة. في القرى المحيطة سومر فيلر، وفلانفال، وبوزمون، وكريفيك، وميكس، وهاروكور، تعيش الحيوانات كما يحلو لها. وما تزال المساحات المحاذية للطريق أما البيوت usoir زستقبل أكواماً كبيرة من الزبل. فتُقاس الثروة بمقدار الزبل الذي ترميه. رائحة القشّ والمخلّفات المختلطة تدل على الرخاء والغنى. بشر وحيوانات معاً يتطاعمون. يتعارفون. الحليب الذي نشربه يأتينا من أسوأ ما يمكن النظر إليه، أو نشمّه، أو نلمسه. وكنتُ أرى أن أبواب الإصطبلات تشبه أبواب الكنائس: فهي مفتوحةٌ على مجهولٍ وصمتٍ بالكاد تعكّره النفخات، والحركات البطيئة، والأنفاس الساخنة.

هنا تحسّ بشِعر البخّور، وهنا باجترار الشبعان. خشوع. في الظل يجري القربان المقدَّس. عطرُ مِذودٍ طبعاً حيث يلين القُتار المُحمّض للوليد برفق أنفاس الحمار والثور. في أعماق الإصطبل، لا يميّز المرء إلا أُستات الحيوانات، وذيولهنَّ التي تطرقُ بإيقاع هادئ، ظهورهنَّ الطويلة جداً، الممتدة على الفقرات والخواصر المثقلة كقوارب هادئة. تتحرك أحياناً، فترسل نحو الخارج سخونةً تشتمّ منها رائحة البطن، والحليب الرائب، والروث، والعشب المَمضوغ، رائحةٌ طيّبة مُخمّرة بالحياة والتعب، والراحة والاحتلاب، والوبر الملوث بالزبل واللُعاب. يتداعى الذباب، مثيراً للأعصاب، ومن دون كلفة، يثزُّ حول الحيوانات المذعورة من عرقها، ثم يلتصق بالسقف، مخبولاً للحظة. تغامر قطّةٌ بالمواء وتلعق بلسانها الدقيق الوردي قليلاً من الحليب في تجويفٍ من التراب المطروق. إنه مشهدٌ وعطورٌ تعود إلى آلاف السنين، تلك التي نتأملها ونستنشقها، كما لو أن البشرية قد توقفت فجأة. نعود، ونحن نغمضُ أعيننا، لنصبح شعبَ ما بين النهرين القديم، أو شعب النيل، أو شعب إيثاكا.

* * *

إثير

به تُقتلُ الهُريرات ويُنَيّم الأطفال. اسمه الخفيف يخفي خدعة غير محسوسة، وشعره السماوي مجرماً. أنا في الخامسة من عمري. أمسكُ بيد أمي ونسير في رواق المشفى المركزي في مدينة نانسي. نصادف ممرضات وأخوات بأغطية رؤوسهنَّ المقرّنَة. أحياناً، يكشف الباب المفتوح لإحدى الصالات المشتركة أجساداً ممدَّدة بعضُ أعضائها المعصوبة تنتصب بانفراجات غريبة. حشرجات. عفنٌ الدَلُوك والجلد الآسن. امرأة جاثية تمسحُ البلاط السكريّ والأسود بممسحتها. جافيل. سأراها بعد عدة سنوات طويلة حبيسة إحدى لوحات سيزان. نتحاشاه كما نفعل في لعبة الحَجْلة. أشار لنا أحدهم إلى إحدى الغُرف. سريران جنباً إلى جنب. سأنام قريباً من أميّ.يا لها من سعادة. حوالي المساء، جاء رجال بقمصانهم البيضاء بينهم رجل أطول وأكبر سناً، وجههُ كالإجاصة، أشبه بلويس الرابع عشر وسط بلاطه المحترم، راح يجسّ حنجرتي، ويطلب أن أفتح فمي، وأمدّ لساني، مخاطباً رعاياه المحيطين به، والمنحنين، بكلماتٍ مُعقّدة.

جالسٌ على حافة السرير وقدماي معلقتان في الفراغ. يطبطب فوق خدي ويقول إني لن أحسَّ بشيء. صباحاً، حُرمتُ من الإفطار. اقُتلعتُ من أمي. فوق سرير سيّار، أنزلقُ في الممرات الطويلة وعيناي معلقتان بالسقف. فجأة صار الجو بارداً، وأضواءٌ مستديرة شديدة، تعمي البَصَر كشموسٍ شماليّة، وشخصيات وجوهها مغطاة، أوغادٌ مُبيضّون ومُقنّعون، يتزاحمون حول أجهزة غريبة، مسلحون بأدوات فولاذية.

تعرفت على صوت لويس الرابع عشر الذي كرر قوله بأني لن أشعرَ بشيء، وأني ولدٌ كبير. كذبةٌ مزدوجة. يقترب كذّاب آخر، ممسكاً بقناع حديدي. يقول لي بأني سأنام بهدوء. لا أريد أن أنام. خائنٌ آخر التحقَ به وثبّتني. غطى القناع الحديدي وجهي وسحبني من العالم. رائحة كاوتشوك مُقزّزة تجتاحُ فمي ومنخريَّ. سرعان ما تبعتها أبخرة الإثير التي اكتشفتُ وجودها الكيميائي العنيف، والجليدي. أصبحت أنا الهُريرة. أرادوا أن ينزعوا مني حملي. أقاوم. أنادي أمي. صوتي الملآن بالدموع يصطدم بجدران القناع. ثمة القرفُ، والفراغ الكبير، والليل. منذ تلك اللحظة صرت أعرفُ أن للموت عِطر الإثير. ولم أتوقف عن التمرّن على انقطاع النفس الذي لا حدود له.

* * *

نار المخيّم

وزّعنا إلى فِرق، بزي موحد ونرفع العلم كل صباح. سروالٌ قصير فضفاضٌ، وقميصٌ أزرقٌ سماوي، ومنديل معقودٌ على شكل ربطة عنق تتنوع تبعاً للأعمار. مهاجعنا مخيمات قديمة، آوت، طيلة سنوات عدّة، سكان قرية مارتينكور الناجين، بعد أن هدم الألمان منازلهم. صباحاً، نمارس أعمال صناعة الفخار، والطلاء الخزفي، والجدْل، وصناعة الشرائط الحريرية الرفيعة، والدمغ الوشميّ، والقوالب والنماذج، والرسم بالبطاطا، والحبال المفتولة. وحينما يحين وقت الغداء، نأكل مقالي بالغة الدسم، ومعكرونة مطبوخة جداً، وقطعاً لحم (ستيك) كثير القساوة، وفاصولياء عافت الغليان. القيلولة إلزاميّة، فنتصنع النوم. يتهامس المديرون المراقبون في الممرات. ثم يحين موعد النزهة، فنصطفُّ على الطريقة الهندية، أو في صفوف من اثنين. منديلٌ معقودةٌ زواياهُ الأربع ليكون بمثابة غطاء للرأس، ونعلق المطرة المصنوعة من معدنٍ أبيض في أحزمتنا. نمشي طويلاً. نتناول طعام العصريّة على حافة أحد الدروب، بين شقائق النُعمان، والترنجان الأزرق، في إحدى فُرجات الغابة، قرب جدولٍ، أو تحت ظلّ شجرة زيزفون فوق واحدة من ساحات إحدى القرى. نأكل الخبز والمربى، ومطبوخ التفاح (كومبوت)، وجبنة البقرة الضاحكة، والشوكولا المُحبحَبة والقاسية، على شكل عُصيّات رفيعة، ذات المذاق الخشن. نطرد الزنابير، ونكرعُ شراب النعناع، أو العرقسوس. كانت تُنظم لنا إحدى الألعاب الكبيرة مرتين أسبوعياً، وتتخذُ الفِرق أسماء حيوانية مثل فريق القنادس، أو

ثعالب الماء، أو الدببة، والذئاب، والثعالب. نطارد العلامات في غابة سان - جان، بالقرب من مخاضة إش، ويعثر على أعلام صغيرة، ونردّ على بعض الفوازير، ونغني أغنية: يا حلوة يا قنينة، *يا مقدسة يا قنينة، يا سانتيانو أعطي الروم لصديقك*. بعضنا يؤلف "اسكتشات" تسخر من المدير أو الممرضة. ثمة آخرون يقومون بدور المهرّج، أو ببعض الألعاب السحرية، ويروون قصصاً تبعث الخوف في النفوس. ثم نغني أيضاً أغنية أخيرة: *أيتها الريح المنعشة. يا ريح الصباح*، لتهدأ نفوسنا، ونلتحق بمهجعنا صامتين. الضوء خافت فيها. الجميع كلٌّ في فراشه. يخيّم الليل. أخيراً بوسعي أن أبكي، لأن هذه الإقامة في المستعمرة التي تدوم شهراً كاملاً، وأعيشها كل سنةٍ من سن الرابعة حتى الثالثة عشرة، تجعلني تعيساً. كما ستجعلني تعيساً خلال سنواتي الأولى في المدرسة الداخلية. حيث الزمن يتوقف. إنها كتلة لا تطاق من الرصاص. أشتاقُ إلى أمي كثيراً. لا أفهم لمَ ترسلني هكذا بعيداً عنها. ثم إنني ما زلتُ لا أفهم، ولم أجرؤ أبداً طرح هذا السؤال عليها. لكن في وسط هذه الكارثة وهذه العقوبة ثمة أعجوبة كبيرة: هي نار المخيم. تُنصب الحطبة على طول مكان الإقامة. وتصبح قامتها كقامة ساعة كبيرة من دون عقارب. بدقة نُوقدُ ناراً من كل أنواع الحطب، جزل عتيق، ألواح خشبية مسطحة من كل نوع، أخشاب ميتة التُقطت من الغابة، ألواح خشبية غير مستعملة، والوزال اليابس، وعوارض خشبيّة مُسوّسة تبرّع بها بعض الفلاحين، وأقفاص مكسورة. مع الأيام، يرتفع الصرحُ نحو السماء، ويتنوّعُ تنوّع برج بابل، ونتابعُ تقدم بنائه بعصبيّة. حينما يحل المساءُ المأمول أخيراً، ترانا جميعاً منفعلين وجديّين في الوقت نفسه. نأكل بصمت ثم نذهب، بطريقة طقوسيّة تقريباً، مقسمين إلى فِرق، نحو المَحطَبة، ويتخذ كلٌّ منا

مكاناً له حولها. نجلس كالخياط في العشب الذي «لألأته الرطوبة». أي نور شَفَقي في الغرب من شأنه إفساد اللحظة. وحينما تكتمل العتمة، يقوم أحد المشرفين بإشعال مشعل صُنع من قماش وقطران. وحينما يصبح المشعل على شكل لهب بدائيٍّ يرمي به في المِحطَبَة، فيشتعل المخروط الهائل من أساسه حتى ذروته، مرسلاً لهبه صداً وليموناً نحو السماء المُعتمة. قد أبقى ساعات أمام هذا اللهب الكبير، تاركاً إياه يبعث الدفء فيَّ ويجتاحني، فيشبعُ جلدي وملابسي وشعري برائحته المفرقعة بالخشب المحروق، وأشهدُ انهياراته التي سرعان ما يتولد عنها جفنات من الشهب الحمراء، والذهبية، والصفراء الفاتحة، وشرارات مُتقافزة، مُشكّلةً حزمة من رؤية لنهاية العالم. كما سأكتشفها لاحقاً في لوحات مونسو ديسيديرو. يبدو لي أن عطر هذه النار الضخمة، بحرارتها الفظيعة، وجمرات أحشائها، تصلني بأعاجيب البشر الأوائل الذين كانوا يصطادون الحيوانات بفضلها، وفي الليل يطبخون أطعمتهم، ويُبعدون البرد عنهم، ويصلّبون رؤوس أسلحتهم. تختلط عليّ الأشياء، فأشعر بنفسي فجأة تحت النجوم التي ترتفع نحوها، كحشرات متوهجة، خيوطٌ محمّرة، وكأنني أحد أفراد جماعة مُغرقة في القِدم. لأجلي تنثني النار العظيمة وترقص. غداة اليوم التالي، يحتفظ جسمي كله برائحة وحشية من اللهب، والجمار اللاذعة، والرماد الساخن، وسأظل أتنشقها طويلاً، كحيوان يستنشقُ الأمل بطريدة جديدة.

***

عَلَف

نُمَلي النظر بالأشقر. قد يكون العطرُ لوناً. أشكالاً أيضاً. حشيش راقد، جافيل، أكداسٌ، وحُزَم، وربطات، متوازيات السطوح. سلندرات ضخمة كتلك التي يضعها مركب فضائي خفيّ. تحت الشمس الدائمة ينحسر الرطبُ من ساعة لأخرى. فرنٌ في الهواء الطلق ناره هادئة، فلا يحرق الطبخة. في هذا كله، نقرأ بوضوح تسابق الظلال الذي نحتهُ مونيه كآبارٍ من سوادٍ فوق خواصر حُزم من حشيشٍ يرسمه. حركات آلية، دائرية، حينما تحوم سيقانُ الحصّادة المعدنية فوق محاورها وهي تهمهمُ بتمهلٍ وثبات، ويتطاير الحشيش، ليعود ويتوضّع من جديد فوق الأرض حيث مدخل وجار صرصار الليل ومدخل حشرة الحرّاثةُ، فيتعريّان فجأةٍ كما تتعرى شبكات الطرق الإسبانية. ثمة حركات بشرية أيضاً، حينما تستدقُ الأرض، أو تزداد ضيقاً فتمنع عبور جرّار فيها. عندئذٍ يأتي دور المِمشاطُ الخشبيّ الجميلُ بأسنانه الغليظة، وخفّته في اليد. فيتم نفضُ العشب الذي تغيرت سحنته بعد أن عاش نهاراً حاراً، وبعد أن أخلى الأخضرُ مكانه للبرونزي. فيتمُّ تجعيده ليصبح شَعراً كثّاً عصياً فضفاضاً. في السماء قبّرات منزعجة، تُفسدُ هواء حزيران المائل للزرقة. أحياناً ننام وسط الحشيش، لأخذ قسطٍ من الراحة، وتقبيل من نحب، وسط رائحة نزاع هذا الحشيش الجميل. شذى الحبّ، والغبار الذي آلت إليه بعض النجيليات الهشّة مثل الزنبق الذي يسمونه أحياناً الحب العابر، والذي يلتصقُ بِعَرقنا. نتمدد وننام في هذا السرير النباتي الشاسع، الطري والمثير، بانتظار طيّهِ، وتحميلهِ ورميه

بين أشداق مخازن الغلال والأهراء. وحركة الرجال، ومنهم أبي، تلك التي أراها بالقرب من *مينيل سوربيلفيت*، في ريف منطقة الفوج، تنطوي على وَخْزِ رؤوس المِذراة، ثمَّ تحريرها من دون عَنَاء ظاهرٍ، إلى أعلى ما يمكن، ورفعها بطَرْقِ عصا المذراة، حتى يتمكن الواقف في أعلى العَرَبة، المحمّلة تماماً تقريباً، من الإمساك بها وترتيبها. لاحقاً، بعد أن تصبح الأشهر أقل رحمة، أقوم بمغامرة مثل لصٍّ في فضاء شاسع يتكوّن أحياناً من طابقين، لا ينيره سوى الضوء المنسلّ عبرَ القرميد، في مخزنٍ للحشيش في إحدى المزارع، والإمساك فيها مرةً أخرى بتلك الشُقرة الأخاذة. الصعود إلى أعلى العوارض، والقفز فوق الحشيش غير المرتَّب الذي نغوصُ فيه كما نغوصُ في يدٍ دافئة، بينما يُطلق الهرّ الضخم المخصيّ الذي أزعجناه، ساقيه للريح. كما أجدُ في العبير الذي يبثه الحشيش في هواء مخزن الأعشاب وفوق أرضية الألواح الخشبية المُخرَّمة، وأنا في الحادية عشرة من عمري، مادةً للاكتشاف. إنه يقع في شِعب ستريتور الجميل، وهو وادٍ لبعض مواضعه أشكال التيرول في جبال الألب، ويصلُ *فريز بجيرارد مير*. إنها مستعمرة متجوّلة. نخيم مصادفةً أثناء مسيرنا طالبين المبيتَ من الفلاحين. النوم في الحشيش، مع الرفاق، لا يغطينا سوى العشب الخفيف القابل للتقطّع، الممتلئ بعطور الهواء الطلق الرصين، وحَفْرُ عشٍّ فيه كالحفرِ في وِجار نظيف، والتواري، الغرق راضياً في بطنه اللامتناهي. بعد بضع ساعات، أجد نفسي، وا أسفاه، واقفاً مختنقاً، في برد الليل، يرمقني بنظرة متعالية من كوكب الجوزاء ونجمة النسر. يبدو لي أن رئتيّ قد اختفتا. أتلقف الهواء لكني لا أستطيع الشهيق. إنني سمكة مرميّة فوق الجُرف. أختنق. على وشك الموت. هذا، من دون أن أعرف، أول أعراض الربو، الذي لن يفارقني، كرفيقِ حياةٍ مُزعج،

وطارئٌ، وجلاّد، لكني مع ذلك، أدين له، بعد أن تنتابني نوباته العنيفة، بساعات هادئة، طريح الفراش، منهكاً، مهزوماً، بعيداً عن الآخرين، تبلغ خلالها القراءة والكتابة درجة من اللذة التي تتآلفُ مع طريقة هشّةٍ وعجيبة للعودة إلى الحياة.

* * *

دُمال

تتطلبُ الأرض منا أن نغذيها إذا أردنا منها أن تطعمنا. كل عامين يشتري والدي، في شهر آذار، ملء طنبر من الزبل(دُبال) من روبير دومغين، أحد فلاحي *سومر فيلر* الذي يتكفل بإيصاله بنفسه، فيفرغ المادة في تِلعةٍ تجاور منزلنا. ينزلق الرُكام الأسود، فنسمعُ ضجيج اندعاكِهِ الحريري الطري ثم لا يلبث أن يثبت زبلاً. يتسخ منزلنا لعدة أيام بالروائح الحيوانية، والبول، والفضلات والقش المختمر. ثمة جزء من منتوجِ أسفلِ بطونِ قطيعٍ حُبس طيلة الشتاء. في الأيام الباردة، والليالي الأكثر برودة، يتوّج الجبل الدافئ بدخان بركانيّ متثاقل، كما لو أن ناراً داخلية، خجلانة، مُداجيةٍ مستمرة في عملها من دون أن يظهر منها أي لهب أبداً. أفتحُ مصراعي النافذة، لكي تدخل الرائحة القوية إلى الغرف كلها. يبدو لي أنها تحدثني عن أجدادي الفلاحين في غالبيتهم، عن لورين، ومورفان. أبي يعزفُ. أحملُ الدلاء، وأدفع النقّالة وأوصلها إليه. تتقلص الكومة. مخنوقٌ، لكني فخور. وبضربة مذراة يصل الزبل إلى الأرض المفتوحة، فيها ديدان الأرض سحبت بقسوة من بيتٍ للدعارة، تنشر حلقات جسمها الوردي للهرب. يعيد أبي إغلاق أنبوب التنفس. لا نعود نميز الزبل إلا من خلال بعض أطراف القش العِفن، المُصفّر، التي تخرج هنا وهناك، من الأرض المنقوبة الشبيهة بالشعر المُصفّر. برودة الأرض ورطوبتها الكثيفة، وسوادها الثقيل، تمتص المادة العضوية وتخنقها. تختلط عطور هذا وذاك، ليلغي كلٌّ منها الآخر. الدخان يموت. إننا فوق بطن يهضم وجبة هائلة من دون ضجة. وبينما

أناول أبي منديلاً كبيراً ذا رسوم مربعة ليمسح به جبهته، وأتمتع بتواطؤ الرجال هذا الذي يجمعنا للحظة، لن أدهش إذا سمعتُ جشأةً قوية تحت الأرض، تعبيراً عن شكرٍ توجهه إلينا آلهات جوفية آكلة للبراز. شبعانة.

***

غولواز وجيتان

لكل منا سجائره، فهذا يدخن غولواز، وذاك جيتان. كما يحب أحدنا إذاعة RTL والآخر Europe1. هذا يحب سيارة بيجو، وذاك سيتروين. ولكل منا مشروبه: بيرنو، أو ريكار. الموغلون في السن يحبون التبغ السنجابي، والأقل عمراً يفضلون التبغ الأسمر، ونحن الأطفال نحبُ الغُبيراء الجافة التي نسميها الحطب المدخّن، بما تسببه لنا من إسهالٍ غير عادي. عميّ ديديه يدخن سجائر الغولواز، ويعمل في منجم الملح في فارانجيفيل، وهو ما نختصره بالقول إنه «يعمل في السَبْخة المالحة» فيفهم الجميع قصدنا. هذه المهنة تبهرني، لأنها تُمارسُ تحت الأرض. قال لي عميّ ذات يوم «إنها هناك»، مشيراً إليها بأصابعه الممسكة بسيجارة متوهجة، والأرض تحت قدمي. بالنسبة إلي، أنا الذي يعرف أنها مليئة بالأساطير الغزيرة، فإن معاشرة أناس في عائلة الصغيرة، والشوارع، والجيران الذين يترددون كل يوم على الجحيم، تكفي لإسباغ هالة مقدسة عليهم. العم ديديه يدخن كإطفائي، مع إنه عامل منجم. لطالما عرفته مع علبة من سجائر الغولواز في جيبه أو في يده، سيجارة بين شفتيه، وسعال مخنوق مستقر، والبيت الصغير الذي يسكنه مع العمة جانين في ٣٤ شارع لوي بورتان – شارع المدارس سابقاً – يحتفظ ليل نهار بذكرى التبغ الأحمر، اللاذعة والمثيرة: فالأثاث والموكيت، والستائر، والملابس، والشعر والأنفاس، كلها تحمل آثار رائحة الغولواز. أحبُّ هذه الرائحة، لأني أحب من يحملونها. أمي تشرّع النوافذ، حالما يغادر عمي وعمّتي منزلنا، بعد تناولهما لشراب ما

قبل الطعام فيه. مِطفأة السجائر مليئة، والصالون يعجّ بسحابة كالرقائق تأبى الرحيل. بقيت روح سجائر الغولواز زمناً طويلاً لأنها تزدري رائحة بيتنا، فتفرضُ حضورها الغريب، كما تذكرني بتلك اللحظات التي أحب أن يزورنا فيها عمي الملقب بالضخم، وعمتي بالبطة، فيقطعان بذلك مجرى الحياة اليومية الذي أراه بالغ الهدوء. رجالُ ذلك الجيل يشكلون موضوعات للاختبار رغماً عنهم: فهم يطْلونَ دائماً رئتهم بالقطران، من دون اشمئزاز أو تخلٍ عن علبتهم الزرقاء، المرنة، والمزينة بالخوذة الغاليّة، مع أنه يترك لهم في عملهم الوقت لاستنشاق مواد وغازات سامة، من دون أن يقال لهم ذلك في أغلب الأحيان. موضوعات تجارب ترسل بهم إلى جبهات القتال، إلى حدٍ ما، ومن دون لعب بالكلمات. مُدخنو سجائر الجيتان يختلفون عن مدخني سجائر الغولواز، فهم غالباً، لا ينتمون إلى الطبقة الاجتماعية نفسها. الكادحون يشترون النوع الثاني. أما أصحاب المهن الوسطى، ورؤساء العمال، والمعلمون، والمهندسون فيستهلكون النوع الأول الذي يُطلقُ تبغه الأسمر دخاناً يبدو لي أكثر قسوة، وعدوانية، وتراه أقل فتوراً، لأنه مضغوط وجاف قليلاً، باختصار هو متعالٍ تقريباً إذا قيسَ ببساطة الغولواز الوفيرة، ومظهره القاسي، وفظاظته المُحبَّبة. علبة مربعة من الكرتون القاسي، شكلها العريض مقارنةً بسجائر الجيتان. علبة أو علبتان يومياً، تماماً كما الخوري باستيان، والقسّ سيلفي لوليجوا.سيجارة الجيتان كهنوتيّة. وهي، من دون شك، امتداد لسحر البخور. أحب كثيراً هؤلاء الكهنة. القسّ توفان، على نحو خاص، أكنُّ له بالغ الاحترام. فهو مسكونٌ بإيمانه، من دون مبالغة، ويعزف على الغيتار. شاب نحيف. بسيط، وفقير. قليل الابتسام، وحزين. ما أزال أفكر فيه، حتى وإن كانت رؤيتي الأخيرة

له تعود إلى عام ١٩٧٥، وكما علمتُ منأحد إعلانات الموتى الصغيرة نشرته صحيفة L' Est republicain قبل بضع سنوات.هو الآن يدخن سجائر الجيتان إلى جانب الله.

* * *

قُطران

خلال ساعات الصيف اللينة، وفي الطرقات الضيّقة المَوَشّاة بالأقماح الناضجة، تسحلُ الشمس ذروة الإسفلت، وترسل بين حبات الحصى الرمادية خيوطاً سوداء بترولية لامعة، وشحمية تلتصق بعجلات السيارات والدراجات، فيغلي المتسكّع. وتفوح رائحة الحجر المكسر، ومسحوق الانفجار، والقطران المكُوْفَر (الممزوج بالكافور)، واليود الغريب في تلك الأراضي البعيدة عن أي بحر، باستثناء ذلك الذي كان يملأ، منذ ملايين السنين، كل شيء هنا، من قعرٍ وعقيق، ولم يترك خلفه سوى أصدافٍ تحولت إلى صخور ثقيلة وقاسية، تحملها سكك المحاريث إلى السطح بحيبياتها غير المادية. أقضي فترة بعد الظهر، الذي لا ينتهي بين هاروكور، وبويسنكور، وريمرفيل، وكوربيسو، في ما أرغب من نزهات. سعيداً. أو مُستَعمرٍ مُنظّمٍ في رتلٍ هنديٍّ فوق طرقات مارتنكور، وغيزينكور، ومامي، وروغيفيل، وأرنو، وكورسيو، مردداً تلك الأناشيد الميكانيكية الغبية التي تتحدث عن الرخاوة، والسيقان الخشبية، وأفضلُ طرقِ المشي. القطران يتعرّقُ حرارةً، بينما تدوزن الجداجد والجراد أجنحتها. تدخلُ الغيوم إلى البطون البيضاء المستديرة فتجيبها القُبَّرات. نشرعُ بالحلم على صوت قرقرة الينبوع. نرصدُ الحُريجات التي تشبه، من بعيد، خرافاً كبيرة زرقاء مستلقية فوق خاصرتها، بالقرب من سان - جان. نتنفس بارتياح. زنبورٌ تحرفه ضربة هواءٍ سريعةٍ لينزلق أحياناً في البرك الفقاعيّة فوق الطريق الأسفلتي المصهور. تراه يحتضرُ وحيداً. من دون جهد، ليتخلص من المصيدة التي

يعرف أنها قاتلة. أجراس القرى المبسوطة في سُحب الحرارة، تدق الساعة الثالثة وتضيع أصداء البرونز، مُخدَّرةً في سماء تملؤها لامبالاة تامة. ترى القطران أيضاً في براميل حديدية. سائلٌ، ينتظرُ عمالاً جزائريين أو برتغاليين ليملؤوا منه سطولاً كبيرة لإصلاح أخاديد الطريق. كل هذا مخزّنٌ قريباً من مدرستنا الابتدائية. نراقب المحتوى. كلون العرقسوس ورائحته. نتحداك أن ترمي فيها حجراً كبيراً. يحرضونني. فأقبل التحدي. ضعف الحمقى. انبثق القطرانُ على شكل لطخات جميلة. فقد البرميل قسماً من مادته. تلوثت الأرض. انحراف خطير. أهرب، مع ثقتي بأنه سيلقى القبض عليّ. أصلُ البيت مرتبكاً. تشعر أمي أن شيئاً ما قد حدث. يرن جرس الباب، فأرى قبعتين عسكريتين؛ الشرطة إذاً. أهرب إلى غرفتي وأختبئ تحت الأغطية. أتخيل محاكمتي وزنزانتي. إنه لمرعبٌ، الخوف. فجأة يشعر المرءُ أنه لم يعد شيئاً، فيلعن نفسه. لكني أسمع أصوات ضحك. فالشرطيان ليسا سوى زميلين لوالدي مرّا ليلقيا عليه التحية: إنه بيرتان القصير الذي سيحرر ضبطاً ذات يوم بسيارته بعد أن أسرف في الشراب، وتوسو الطويل بأنفه الشبيه بأنف ديغول. عدت نازلاً بخطى سريعة، لكن الخوف ما يزال يسكنني. لا أحد يدري أبداً. ربما تكون خدعة لإلقاء القبض على مَنْ خرّب برميل القطران. لا ليس الأمر كذلك، لأن السيارة تغادر. حان وقت الطعام. هيأت أمي المائدة، وصَوبتُ يديَّ، لكني اكتشفتُ بقعةً سوداء فوق ذراعي الأيسر، شحمية ولاصقة، ترفض الزوال، بل تنتشر كما لو أنها تعلن بأني مذنب. مذنب.

* * *

الصلصال الوردي

واطئةٌ بيوت منطقة الفوج في وقت ما بعد الظهر الطويل إبان فصل الخريف، وهي تشهد قلة النور الخافت والبرد المغسول بالمطر. مطرٌ أحمق. عنيد. لا شيء يقف في وجهه، لا جبهات السطوح ولا المظلات التي تبتل حينما نزور القبور في المقابر بمناسبة عيد القديسين. في سِلْ سورسين، وسان - بليز. اتاس. مسالكُ موتانا. دورة الأقحوان. نتزحلق في الوديان المُقفرة حيث ترتاح قرى مغلقة في أسفل غابات كثيفة من أشجار الصنوبر الأسود. الشلالات تنفثُ ماءً مضطرباً، مُحمّراً. والمقاهي مغلقة. لا شيء يتحرك. أنا أيضاً لا أجرؤ على الحركة في بيت جدتي كليمانتين، أمُّ أبي، اسم جميل لامرأة فقدن ابتسامها، وحنوّها. نبقى في مطبخها، لأنه المكان الذي تستقبل، وتأكلُ، وتنعسُ فيه، متحدية الساعات، وفيه تستنفد يومها وحياتها. لا أعرفُ غرفتها ولن أراها أبداً. سريرُ موتها، حيث أودعتها قبلتي الأخيرة، يقع في الطابق الأول من بيت ابنتها، العمّة نينيت، الأخت التوأم لوالدي. ينتابني الملل. البرد قارس. ولا تدفئة. الوقت باكر جداً. نحن في بواكير شهر تشرين الثاني.تتجمع الأوراق الميتة عند أقدام الأشجار، كتجمّع أعضاء أخَويّة دينية. أمي أيضاً، ينتابها الضجر . كلماتها قليلة. والدي وأمه، يكرران لازمة الميراث الطويلة من دون إعارتنا اهتمامها، كما يتحدثان عن ضغائن قديمة، وأملاكاً باعها آخرون، ونميمة، وقصص عائلية موشاة بالأحقاد أكثر من روايات الحب. أغمض عيني. أحاول التعرّف على رائحة البيت، كما لو اني أريد بذلك أن أحبه بشكل أفضل. رطوبة، وملح بارود،

وعفونة، وورقة صحيفة مكتوبة بحبر قوي، لا تُرمى لأنها تستخدم في مسح العجيزة. أثار قشٍّ، وغسيلٍ لا يجفّ أبداً. دخانٌ ميت. شطيرة قديمة شحُب لونها وهي قابعةٌ في قالبها الأسود. إنه كهف، بل مغارة، لا تنقصها سوى الطحالب، والرواسب الكلسية، والتحُجّرات، والخفافيش. استكشافي للمغاور هذا لا يقودني إلا إلى الرعب، الرعب من أن أكون محكوماً بالعيش فيه. ومع ذلك، مع ذلك يعجبني الحجر المائيُّ بشكل غريب، الذي يشكل كتلة واحدة من الصلصال الوردي، ابن منطقة الفوج، المبلّل باستمرار لأن الحنفيّة تتقيّحُ ماءً ضحوكاً. إنه كينبوع في البيت ينسلُّ ماؤه من تربة مخروقة. هذا الصلصال يكون أشبه بلون شفاه الصبايا، حينما يبتلُّ على هذا النحو. دائماً، يمنح لامسهُ مداعبةً، ويشرب منه عطراً زهرياً، حلواً، كعطر الغابة: ناعماً، وخفيفاً جداً على الرغم من كتلة الحجر الكتيمة والثقيلة التي لم تتآكلُ كثيراً، وعمره الذي تختلطُ ولادته بولادة العالم.

* * *

ملعب الرياضة البدنية (جيمناز)

لملاعب الرياضة البدنية قوة شهوانية لا يُعرفُ قدرُها، لا سيما التي قَدُم عهدُها.وبشكل غريب، يجتمع فيها بشكل الغبار، وقلة التهوية، والأدوات المهترئة، والضوء اليرقانيّ، ومشالح الملابس المتهدّمة، لتشكلّ ديكوراً ملائماً لاشتداد الرغبة الغرامية. الأب جورج، أستاذنا في الرياضة. كنا في الصف العاشر من مدرسة بيشا في لونيفيل. يدخنُ كثيراً، ولم يعد يمارس الجريَ منذ زمن بعيد، ومكان إقامته، مع زملائه أشبه بملحق أحد البارات. أظنُّ أنه درس الأمر من جوانبه كلها، وهيئته التي توحي بعدم الاهتمام بأي شيء، ليست أقل الدروس التي يعطينا إياها. على أي حال، كنا بضعة أفراد، غير مؤهلين لمقياس الوقت (كرونوميتر) والتأثير فيه كثيراً. صفٌّ مختلط في المدرسة، البنات في جانب، والأولادُ في الجانب الآخر. لكن في درس الرياضة لايخلط الأولاد مع البنات. ومع ذلك كنا نتشارك ملعب الرياضة. هنّ في زاوية، ونحن في أخرى، ونقفز بالتناوب فوق الأحصنة الخشبية، ونمسك بالحواجز المتوازية نفسها، والحلقات، والحبال ذات العُقّد، والحواجز الثابتة، ونسقط فوق الفرشات نفسها ونتدحرج فوق البُسُطِ الأرضيّة نفسها. ولا تنفك أجسادنا المشدودة عن التلامُس. ننظر إلى الفتيات، اللواتي نعرفهنَّ جيداً، بنظرات بريئة. الجهدُ يبللّ جباههن وآباطهن بالعرق، ويسبغ على نظراتهنّ تعباً مضطرباً وواهناً، وعلى حركاتهنّ بطئاً شهوانياً. لأنفاسهنَّ حرارة تصلُ إلينا فتثيرنا. تتلوّن وجناتهنَّ بلون الأرجوان. فجأة لا يعدن فتيات من ورد، بل من نار.نارٌ تُلهبنا. وسواء

فاحت رائحة البيرة أو البيرنو أو التبغ من الأب جورج، ومهما أخفى الجيمناز آثار العَرَق، من أقدام وأجسام مهملة، وحتى قِدم الحبال والبُسط – التي تفوح من نسيجها المهترئ رائحة الصمغ العربي بشكل غريب – فإنها تضفي على المكان جواً سوفييتياً. هذا كله، لا يمنعني أبداً من الانفعال أمام فخذيّ كورين رومو الموشاة صفحتاهما الداخليتان بما يشبه الأبخرة الوبرية، وإزاء تأنق كارول رافاييه الأصحر، وصدر ماري ماران الذي لا يُنسى، إذ يظهرها أكبر من عمرها، وعانة إيزابيل لوكلير الطرية طراوة بطن ثعلب الماء، وسروالها القصير الذي يخفي أكثر مما يظهر. كل شيء يُسكرني. أحصدُ الهمهمات، واللمسات، والتقويرات، والألق الأبيض أو الوردي النادّ عن (الكيلوتات) التي تسجّل حضورها عبر حركة المقص في إحدى جولات القفز العالي، واختلاج النهدين أثناء مسابقة الوثب، والكَفَلين المفتوحين لما بينهما من انزياح، وانثناء ركبتيّ متسلقة الحبل، وترتفعُ بدبيب أنيق، خاصرتاها منحنيتان، وهي تبذل جهدها لبلوغ سماء الجيمناز، وأنا أراقب بفمي الفاغر، وعينيَّ المسلوبتين ودماغي المضطرب بسبب تدفق الهرمونات، وعضوي المتصلب صلابة رخام روماني. بقيت ملاعب الرياضة البدنية كرفاق قدماء، وهي تعرف ذلك. بعض من يدخلون إليها يغلقون أنوفهم، ويقطّبون وجوههم. أما أنا فأغمض عيني. أبحث عن الفتيات. فتياتي. أسمعهن، صدقاً، وهن يضحكن، يضحكن، ويستثرنَ أنفسهنَّ، ويركضن، ويشجعن بعضهنَّ، لكني لم أعد أراهنَّ. لأنهنَّ حُبسن في إحدى حلقات الزمن، أما أنا فأبتعد.

***

وَدَكٌ مقلي

في آخر حديقة منزلنا، بالقرب من قنّ الطيور، يصنعُ أبي، من وقتٍ إلى آخر، غرفة لتدخين اللحوم والأسماك وغيرها، تتكوّن من صفيحة من الزنك المُطَوّى، تعلوه مدخنة أنبوبية الشكل. يعلق فيها لفافاتٍ من الوَدَك النيء، ويضع عند قاعدتها غَرْفَاتٍ من نِشارةِ خشبِ الراتنج التي تحترق ببطءٍ من دون لهب، ويصدرعنها دخان مزرقّ كالذي يصدر عن مقاطع الحطّاب في الصنوبر في فصل الخريف، وتطفو فوق ذروة الأشجار الطويلة لتطوّقها. غابة الفوج. مِزحة فوجيّة: «من تحب أكثر: أمك أم أبيك؟ - أفضل الوَدَك!». لا بدَّ من مرور عدة أيام حتى يصبح التدخين فعّالاً. حينما يقوم والدي بإخراج اللفافات تكون ضامرة، ومتصلبة، وقد تحولت ألوانها البيضاء، والوردية والطريّة إلى ألوان أخرى أكثر كماداً، ويؤول لحم الخنزير couenne إلى جلد. وإذا قرّبنا أنوفنا، نشتم اختلاط رائحة اللحم بالعطر البريّ الصادر عن المادة الصمغية والتدخين.

سكينة مشحوذة جيّداً، وصفيحة خشبية بسماكة نصف سنتيمتر، ليتم التقطيع فوقها، وتسخين المقلاة، ووضع قطعة من الزبدة، وانتظار ذوبانها. ثم تسطيح القطعتين في المقلاة. موسيقا وأطايب. فجأة يصيح المطبخ من نشيش اللحم في الوقت الذي يتصاعدُ من المقلاة مزيج كثيف له رائحة الشحم الساخن، واللحم المشوي، والصنوبر، والوبر الأصهب. نتأمل تأثير الحرارة، نصف الشفّافة والمتعرّقة، بينما تتحول الخطوط الرفيعة إلى لون

أرجواني، خبّازي، أو بلون الفوّة، أي إلى اللون الأمغر، إذا طال الطبخ عدة ثوانٍ. ثم تُسحبُ القطعتان من المقلاة، لتُبسطا فوق الخبز، لتؤكل ساخنةً. أبي يحضّر لي هذا كله. ليس هناك نظام غذائي يصف هذه الطريقة، مع الأسف. مع إنها أحد الدروب المؤدية إلى لحظة من السعادة التامة. عطر الوَدَكِ المقليّ مع البصل، أو المخلوطين ببعضهما، يُسيل لعابي مباشرة، ويثير فيّ غبطةً تمتد طويلاً إلى ما بعد الوجبة. قد تكون وجبة خفيفة مناسبة.إنها شيء مُرتجل، لا تصنّع فيه، ولا إحراج، يبدأ حوالي الساعة العاشرة صباحاً، بوصفه خروجاً على العادات. لدى عودتي من السوق، يوم الخميس مثلاً، بعد أن كنت أمام منضدة البيع المفتوحة التي يشرف عليها الأب هافينر، بائع اللحوم الباردة، وفلاح يربّي الخنازير في مونتينيي غير البعيدة عن منطقة دونون، وبعد أن أمرّ أمام واجهة محل للألعاب قبل عيد الميلاد، أضعُ كنوزي فوق طاولة المطبخ - ولحم الرأس المجمَّد، والنقانق البيضاء الغليظة بالفطر المسمى بوق الموتى، وَدَك مُدَخَّن، خطمٌ، نقانق مطبوخة، ونقانق غليظة، وأرجل مطفأة، ولحم خنزير بعظمه، والفيليه مينيون - ولكي أقوم بتكريم الحيوان المُضَحَّى به، والمَضحيّ به، أمسك بالوَدَك وأتنشقهُ، وأقتطع شريحتين رقيقتين، وأجهز الخبز والمقلاة كما كان يفعل والدي لأجلي. وبعد أن أسكب لنفسي قدحاً من نبيذ سانتونيه من شيه بورجو، أستعدُّ للاحتفال بالقدّاس الذي لست مستعداً للتخلي عنه.

* * *

خضار

ما عليكَ إلا أن تدفع باب الدكان المجهَّز بجرس، في أسفل شارع جان دارك، غير البعيد عن تقاطعه مع شارع ماتيو، حتى تنفذَ إلى مِبْقَلَةٍ مُجمّعةٍ في فضاء كبير أشبه بالمنديل، ليس فيه كثير من الناس. الحقيقة، أن قليلاً من الناس يرتادونه. يرسلني أهلي هناك في الربيع لابتياع مظروفٍ من البذار أو قطعة من القرع عند نهاية شهر أيلول، أو ربطة كرّاث حينما تنفذ من البيت، وثلاث حنظلات مُثألّلة لتزيين صواني السفرة (بوفيه)، أو بضع جزرات طازجة مربوطة على شكل حزمة من ألياف النخل حينما تتأخر، وخسة نديّة. تفوح رائحة الحساء، لكن قبل أن تبدأ ربّة البيت بالطبخ، تجمع الخضار كلها، وتخلصها من قشورها المتربة، وتقطّعها لتطلقَ أنفاسها، وأنساغها، ونكهاتها من اللفت والكّراث. سُلاقةٌ باردة رائعة من دون لحم. دكانُ عائلة فانسان مِرجلٌ لم توقدُ النار تحته بعد. الأم منحنية، ساحرة، رقيقة ومُسالمة، زَبَابةٌ [نوع من الفأر] رمادية، نحافتها تثير الخوف، ومجعّدة كجلد الفيل. الابن ضخم الجثة، يكاد ينبجسُ الدمُ من وجهه. بل قل إنه سينفجر. وجهٌ أشبه بكائن نصفه ثور ونصفه الآخر رجل). أجده رائعاً وأسطورياً. من المؤسف أن له عينين، وإلا كان سيكلوباً (بعين واحدة). أراهُ عليه في بعض لوحات بيكاسو الأساسية والأولى ذات السمة الواحدة. يقال إنه يشرب، وغالباً ما يرتاد حانة ليه دو رو وحانات أخرى، وينتهي به المطاف ملقى على الأرض، نائماً. وبعد؟ ما يباعُ هناك ينبت في الأرض، بفضل أيديهم الأربع المشققة، وبفضل شجاعتهم، وصبرهم. حدائقهم قطّاعات سوداء طويلة خلف المقبرة. الخضار كلها تنمو بالقرب من

الموتى الذين يمنحونها شيئاً من ذاكرتهم: بطاطا، ملفوف أحمر وأبيض، مموّج، وعادي من بروكسل -، سِلق، وأضلاع الحرشف والسلق، شوندر، وبَصل، وهليون، وبندورة، ولحية التيس، والثوم المزروع، والحُمّيض، والفجل الأبيض والأسود، والخس الصيفي (باتافيا)، والخس العادي، وأوراق السنديان، والهندباء، والأنديف، وخس النعجة،، وأعشاب معروضة في إناء أزرق بنفسجي على شكل باقات صغيرة مثل البقدونس الأفرنجي، والخس البسيط أو المزدوج، والطرخون، والزعتر، وإكليل الجبل، والقويصة، والبقلة الزراعية التي تؤكل كالثوم، والصعتر البري. طبيعةٌ ليست ميّتة تماماً، فلامنديّة، سخية، ذات رائحة، سلة كبيرة من العطور الحيّة والخرافية التي تنوّع أريجها لتذهب نحو البهاءات الخريفية الطيّبة. وحينما تلتقي الفواكه بالخضار، تنسلُّ من مكانها تاركة إياه لها. حينما توفيت والدة فنسان لم يعش ابنها بعدها. رحل فجأة، كسنديانة مقطوعة. ما يزال الدكان الصغير يحتفظ بعد بضع أشهر على وفاتها، بواجهته المزدحمة بالنباتات في أحواضها، فانتهى حالها إلى الجفاف والموت، لأن أحداً لم يعد يرشها بالماء. بيعٌ، فشراء. قام المالكون الجدد بردم الفتحة وتطيينها بالإسمنت. ولم نعد نرى شيئاً مما كان. في الجهة المقابلة، مشغلُ بوساك الذي كان يشغِّل أكثر من ألف امرأة خيّاطة، تحول إلى شقق عجيبة تفصل بينها قضبان من قصب، أمامها حدائق فيها طاولة وأربع كراسٍ بلاستيكية ومشوى للحم. بعدها بقليل، أغلقت قاعة الموسيقى، وسينما جان دارك أبوابها. «شكل المدينة يتغيّر، وأسفاه، بسرعة تفوق تغير سرعة قلب الفاني». وهو ما يذكرني ببودلير أيضاً، هذا الذي أدرك حتماً كل شيء عن الأشياء والبشر.

***

بيت الطفولة

كنت جالساً إلى طاولة المطبخ في ١٧ تشرين الثاني من عام ٢٠١١، والحرارةُ في الخارج تتجاوز الصفر ببضع درجات. اسمرّت السماء. يومٌ رماديٌّ كالأيام التي أحبها. بعد ساعتين سيخيّم الليل. البيت غير مسكون منذ أكثر من عامين. منذ وفاة والدي. كان قد أُفرغ جزئياً من بعض أثاثه وتم تنظيفه. ما زالت أشياء كثيرة مُبعثرة كبعض قطع الأثاث، والعلب الكرتونية المفتوحة، وأواني مكدّسة غير مَجْليّة، وأكياس بلاستيكية بدأنا بملئها بأغراض متنوعة من أدوية، ووثائق قديمة لا قيمة لها. اختفى سرير والدي. كَسَرهُ وهو يتهالك فوقه بعد أن ذهب لتناول قهوته. مِقشّات معلقة. ومكنسة كهربائية ضجرانة تحتل وحدها الصالون. البيت يشبه ميتاً حظي بنصف تنظيف، ثم أهمل هكذا من دون سبب قاهر، أو كراهية، أو نسيان، بل بكل بساطة لأنهم كانوا مشغولين بشيء آخر. ترددتُ طويلاً قبل المجيء لكتابة هذا النص هنا، إلى هذه الطاولة، حيث كنت أكتب واجباتي المدرسية وأنا طفل، في هذا المطبخ الذي لم يتغير كثيراً حيث كنا نتناول وجباتنا، ونلعب بالمونوبولي، والقزم الأصفر، والأحصنة الصغيرة، ونحضر لامتحان البكالوريا مع شقيقتيَّ بريجيت وناتالي ووالدينا. الجو باردٌ اليوم في هذا البيت، لأنه غير مدَّفأ. بيتُ ميتٍ. لا بدَّ أن أبي في قبره في الجانب الآخر من الطريق، على بعد أقل من مائتي متر، لا يشعر بالبرد أكثر مني. لو نظرت عبر النافذة، لعثرت على المنظر الذي كنت أراه أيام طفولتي. الحدائق ما

تزال هناك، لكنها تركت، من الآن فصاعداً، لمصيرها. توارت هي ومن كان يُعنى بها منذ زمن طويل. أذكر أسماءهم حتى لا يطويهم النسيان تماماً: هوكار الطويل، والسيدة هوكار، السيد والسيدة مونان، السيد والسيدة هيربيت، السيد ميلين، السيد لوبون، وجيراننا آل موريتي، وآل كلود، وآل ريبلنغ، وآل فينو. ها هم أولاء. ما يزال المستنقع الصغير موجوداً، والمروج، ومجرى نهر سانون، والقنال الكبير، وخلفه جبل رامبيتان المتواري في الضباب والسماء. أحدهم أوقف مقطورةً خلف الدرب الصغير. بقعةٌ بيضاء وأخرى صفراء تخلوان من اللياقة. تساءلت عمّن يكون ذلك المسافر الذي تنتظره. لكن، ربما قرر صاحبها أن يتركها هناك، كما يسعى البعض إلى التخلي عن كلبهم بعد أن ملّوا صحبته. تجوّلت في الغرف. دخلت عبر المرآب، بعد أن حرّكتُ الأقفال الثلاثة التي دفع القلقُ والدي في أيامه الأخيرة، إلى تزويد الباب بها. عاودتني رائحة البنزين، والمجاري، ومشغلُ الإصلاحات الصغيرة، والمِزْيَتَة، والقِدد الجلدية، والأحزمة. فوق منضدة العمل كُتبت فوق لوحة خشبية جملةُ آينشتاين: «الترتيب ميزة الضعفاء» التي جعلها لنفسه شعاراً مريحاً. أعود إلى بيتي في أرض معروفة. لكن لا شيء بعد هذا. أصعد إلى الطابق الأول، حيث مطبخٌ وغرفةٌ، وصالونٌ، وغرفة جلوس. أفتح مصاريع النوافذ. أتوجّهُ نحو العِلّيّة، وأمرُّ بغرفة أختي البكر، وأبلغ السقيفة التي سبق لأبي ترتيبها وأنا في الثالثة عشرة من عمري. غرفتي. ميداني، الذي آل إلى أختي الصغيرة بعد أن غادرت القرية. الجدران والسقف ترتدي لباساً من خشب الصنوبر، ومكتب صُنعَ من المادة نفسها، والأرض يكسوها موكيت أخضر. أحبُّ هذا الموضع. فهو يذكّرُني

بالملاجئ الجبليّة التي تدفعني إلى الحلم، وصرت أتردد إليها في فترة لاحقة. فيها شهدتُ أول انتصاب، وعرفتُ أولى ارتعاشاتي وأنا أفكر بنهديّ أستاذة اللغة الألمانية يوم كنت في الصف الرابع، وفيها دخّنتُ أولى سجائري، وفيها شاهدت، طيلة سنوات، عبر تلفازٍ ما يزال بالأبيض والأسود برنامج نادي السينما الذي يشرف عليه كلود - جان فيليب، أي أني التقيت هنا تحت هذا السقف، بجان غريميّون، وجوليان دوفيفيه، وإرنست لوبيتش، وفرانك كابرا، وفيديريكو فيلليني، وغيرهم. البدرُ الخجولُ نفسهُ يبلّل الغُرفَ كلها. أتنفس كثيراً، وأتمخّطُ لتنظيف منخريَّ، فلا أحس بأي رائحة، أو أي عطر. لا شيء. لم يعد للبيت أي رائحة. رحل والدي حاملاً معه ما يدل على ما كان سَكناً. مات، ومات معه عطرُ البيت. أحسّ بالبرد. إنها المرة الأولى التي أكتبُ فيها هنا منذ سنوات عديدة. أكثر من ثلاثين سنة، على ما أظنّ. وهي المرة الأخيرة. سيباع البيت عما قريب، وسيعاد طلاؤه، ويتغيّر. ستسكنهُ كائنات، تحمل إليه حيواتها، وأحلامها، وهمومها، وآلامها، وطمأنينتها. سينامون فيه ويتحابّون، ويأكلون، ويغتسلون، ويذهبون إلى الحمامات، ويصلحون أشياءهم الصغيرة، ويبكون، ويضحكون ويربّون أطفالهم، وشيئاً فشيئاً، سيتكيّف البيت، كالشمع المرن، معهم، ويحتفظ بروائحهم. أعرف، حين أمرّ أمامه، فوق دراجة، أو في سيارة، أني لن أنظر إليه. لن أستطيع. حينما أذهب إلى سومر فيلر، أُفضِّلُ أن أدير رأسي إلى اليمين، نحو المقبرة، نحو الموتى، نحو أبي. ما أحزنَ ألا يعود المرءُ يشمّ شيئاً. محزنٌ أن يكون هناك، في البيت البارد الذي فقدَ عطره، كما فقدَ بيتر شليمهيل ظلَّهُ. ظننت أني مُنفعل. بل ظننت أني أبكي، أنا الذي يسهل

البكاء عليه كثيراً. لكن لا. فقط أخذتني المفاجأة. مُندهش. لا أدري ما إذا كنت أنا الذي تغيّر أم البيت، لكننا صرنا معاً غريبين عن بعضنا بعض. إنه خطأي، في المحصّلة. لم يجبرني أحد على العودة إليه. سأرحل. سأعيد إغلاق مصاريع النوافذ، والأنوار والأبواب. سأعود إلى الحياة. هنا، لم يعد لي مكان. فهمت ذلك لتويّ. عطستُ أيضاً. إن أطلت البقاء، أحس بأني سأصاب بالزكام. عندنا يقال لمن في مثل هذه الحالة: أُصيبَ بالموت.

* * *

موت

بقي الموت لفترة طويلة بيتوتيّاً. المرء يموت في بيته، فيبقى ممدداً لبضعة أيام، ثم يجتاز العتبة لآخر مرة. غالباً ما يكون سرير الميت هو نفسه السرير الذي ولد فوقه، وحلم، ومارسَ الحبَّ؛ وقضى ليالي مؤرقة أو لذيذة. رأيتُ أول الأموات يوم كنتُ في الرابعة عشرة من عمري. الأصح، إنها كانت إحدى الميّتات: جدتي لأبي التي قليلاً ما أحبها. لا شك أن هذا هو السبب الذي لم يجعلني أهتم بمنظر الجسد الجاف المُسجّى والفم المقبوض. إنه درس نتعلمه من الأشياء. تدريبٌ. لبرهة، أنحني مقترباً، أطوّف عدسة ميكروسكوبيّة فوق جلدها الأشبهُ بقضيمٍ شمعيّ. حينما تُلامِسُ شفتايَّ خديها، هنا فقط تسري رعدة في جسمي. الموت يعديني. الوجهُ قاسٍ وبارد، له مظهر وجه بشري، لكنه لامبالي وقاسي. دفعني الخوفُ إلى ذرف بعض الدموع التي لا بدَّ وأن تفسَّر على نحو آخر. لم يمرَّ وقت طويل على طبع قبلاتي فوق وجه أبي. ابتَعَدَت سنواتُ عمري الأربع عشرة وتوقفتُ عن إحصاء الأموات، وعن الخوف أيضاً. والدي مُسجّى في غرفة الموتى، التي لم يعد اسمها كذلك بل «الصالون الجنائزي»، لأن زماننا مولعٌ بالكذب. بُسطٌ مخمليّة. ضوءٌ خافت، وموسيقا ناعمة، وباقات ورود. لم يعد عطرُ الموت ذلك الذي يتضوّع من غرفة الميت، حيث ما يزال ممكناً التعرّف عليه، واستنشاقه. في غرفة الموتى، يختلط الأموات ببعضهم، تفوح منهم جميعاً رائحة الزبيب الفاغمة، والهواء المكيّف، ومستحضرات التجميل. أبي، ككلٍّ من سبقوه، وكعميّ ديديه، أصبح سوفييتياً، بريجينيفياً. بالكاد أتعرّف

عليه. كائنٌ مُنَقّحٌ ليكون لوحةً رسميّةً، كئيبةً. أصفر. معفَّر بالبودرة. مُمَلّس. حواجبهُ ممشوطة. كرملين وساحةٌ حمراء. كذبةٌ كبيرة، في المحصلة. حينما قبّلته لم أجد شيئاً من رائحته. تفوح منه رائحة فاسدة لامرأة وأدوية. خليطٌ أصلي من الفورمول ومسحوق الرز، أساس تجميلي، ومسحوق كافوريّ. غرفة الموتى طنجرةٌ من نوع الإمبراطورية الثانية، وملحقُ شركة صيدلانية. الموت يخلط الأوراق، بل يجمِّلُ الواجهة. إنه يستبق. أمي حضّرت لموتها. ضبطتهُ ثلاث مرات من دون تكاليف. التفاصيل كلها جاهزة. وَصَفها لي الموظفُ هاتفياً، قبل قليل. حَدَّثني عن الورود، والموسيقا، والجثمان، وحفظ الجسد. لأننا لم نكن نعرف في أيِّ حالٍ سنجدُ أمي. كانت أمي إلى جانبه، ما تزال حيّة. تستمع إليه وهو يتحدث عن جثته المستقبلية. كنتُ عالقاً في زحمة السير. كلاهما يحتسيان الشامبانيا. كان قد حمل زجاجة للاحتفال بالعقد. لا شك أن الموت لا يفوته شيء. يعرف كيف يعيش. إنه يتكيّف مع الأزمان. يغيّر زينته. يُبدعُ. نفهمهُ. لا بدَّ أنه يضجر، هو أيضاً. فالربح الدائم، ليس لعبة.

***

جُبن مُنستر

ممنوع من الإقامة. مطرودٌ. محكومٌ صيفاً وشتاء بالبقاء على حافة النافذة سواء أمطرت السماء أم أثلجت. مع ذلك، فإن ظاهرها عديم الأهمية، صغير، دائري، قليل السماكة، حائر بين الأصفر والمائل للبرتقالي، تبرزُ في بعض مواضعهِ جُذامات بيضاء أو رمادية. حينما ينفتحُ يبرز لبٌّ طباشيري في مراحله الأولى، يشبه جُرفاً صخرياً نورمانديا في شحوبهِ، ينهدم بسهولة تحت حد السكين. مع مرور الزمن يكتسب لدانةً قد تصل إلى اللون، فيصبح أمغراً وصقيلاً، بينما تتجعد قشرته كخديّ مؤجِّرة مُسرفةٍ في مساحيقها. أمي لا تقبل وجوده في البراد، وترتاح حينما يُدخِل أبي قطعة منه كما لو كان مخالفاً للقانون، مع أنه يحبه بشراهة ويعده بمثابة قطعة مادلين أثيرة. تقول له: «إنك لا تعرف ما هو طيّب». فيرد قائلاً «معك حق، وإلا لما تزوجتك!». أمي لا تحبهُ، إذاً فنحن، أنا وشقيقتيّ، لا نحبه. لهذا كان عليّ أن أنتظر طويلاً لأتذوق هذا الجبن، وأيضاً جبن الماعز، ودماغُ الحمل وفخذه. وأجعل منها أطايبي. أمتثل، من دون تفكير، لذوق الأمومة، وأدين معه ذوق أبي المتدني لعَفَن المأكولات. أتصنّعُ الهلع. أقرصُ أنفي وأقطّب وجهي، وأتخذُ هيئة من يريد التقيؤ. جبن المونستر يشيخ من الخارج، من دون ملاذ. متشردٌ أشبه باللبن، مختبئ خلف مصراع شباك مطوي تحت عين مقياس الحرارة المتعالي. حينما ينهض والدي، بعد نهاية الوجبات ليدعوه إلى الطاولة، نغادر المطبخ مُطلقينَ صيحات عالية، كهؤلاء البرلمانيين الحمقى الذين يخرجون، أحياناً، من القاعة بصخب. إذاً، يتلفّعُ والدي وحيداً

بأبخرةِ هذا الشيء، اللامُسمّى، ولا يمكن تسميته، ذلك الذي لا مكان له في البيت، ولا في لغتنا، والذي تؤكد أسطورته التي نقلته عبر أعدائه، أن تصنيعه يتطلب أن يُبالَ فوقه، وهذا غير صحيح، لأن ذلك يعني أن على الجبّان المسكين بذل الكثير من البول. ماءُ المزابل، وزبل وروث، وبراز سائل، وفساء، وكريم محمّض، وسنٌّ منخور. إذا كان شمّه صعباً، فإنه يسلم نفسه للفم. استنشاقه يدينه. وتذوقه يعفو عنه. خلف هيئته التي تشبه هيئة أحدب نوتردام (كاسيمودو)، أو بطةً قبيحة، ثمة أمير يطلب أن نقدّره حق قدره ليظهر، ونُخدع سواء حول الجبن، أم حول الكائنات.

* * *

صيوانيّات

إذا كان ثمة من يتهيأ المرء لدخول المعبد، عليه أن يطأطئ رأسه، كما لو كان في حضرة ملكة. ملكة المراعي والحقول، وامتدادات حزيران المُعشبة والخرافية. ترى ما العطر الذي ينبغي حمله إلى جزيرة قفرٍ ليس فيها منه شيئاً؟ كل العطور التي أتحدث عنها حتماً، لكن هذا يربطني أكثر من غيره بروابط غامضة بتعلم العالم. أقضي طفولة في حالة انبهارٍ دائم؛ حيث ترافق الطبيعة كل واحدٍ من تحولاتي فتفضي إليَّ بسرّ، سر العصافير، والأسماك، والقوارض والورود، والأشجار والصخور والمياه. سرّ الأيام والفصول، والغيوم، والظواهر الجويّة، والضباب، والمجرّات. ثمة الكثير لنعرفه ونتلقاه. أدركُ الأمور. بعينين مُغمضتين أمشي في المرج المستريح.إنها نهاية حزيران الماطرة الناعمة، والحارة تقريباً. المدرسة صارت ورائي. توضَّعتْ قمةُ جبل سير ضيّقة فوق الحقول فتحتفظ في بخارها المُغذي، ضفاف نهر سانون، ورامبيتان، ومزارع سومر فيلر الأولى التي أرى سقوفها من بعيد. أتون. الشمس خلف الغيوم النحيلة ترفض الغروب. والعشب الطويل مُخضلّ. كلما خطوت خطوة يلتصق بفخذيّ تاركاً عليه قطرات فاترة سرعان ما تنحدر إلى حذائي. أداعبه بيدي. أغمض عِينيّ. لا أريد أن أرى، أريد أن أشعر فقط. الماء. الربيع. روائح الأرض المبتلّة، التي تنتظر بفارغ الصبر استقبال خُضرة فتيّة، أبحث. أعرف أنها كلها قريبة. أود لو أكون مرة أخرى ضحية سحرها. إنها جنيات الحقول. تغري المُتنزّه بفَوَحان بقلتها الخضراء فلا يقوى المسكين بعدها على التعلق بأعشاب أخرى، ويظلّ

مسكوناً بأريجها الكمّوني، حيث يمكن التعرف على نفحات مخففة من اليانسون والمنثور. صيوانيّات. الاسم المؤنث الذي ينتهي فجأة بنهابة ذكورية هو سمسم الحكاية. أتمتم به وأنا أمشي. رأس كبير متوّج بورودٍ صغيرة مرتّبة على شكل باقة مُقنبرة بأناقة سأجدها لاحقاً في العجين الزجاجي المتلألئ، والمُرصّعات الصهباء، التي يُصنعها إميل، غاليّه، تنحلُّ روائحها في الهواء، كذلك المشدّات المعقدّة التي كانت تحبسُ، في زمنٍ غابرٍ، الجسد المتلهّف للفتيات، وجسم أمهاتهنَّ الثقيل، المُتعَب والمثير.

* * *

بنطال الصيد

طبقةٌ خارجية لرغيف خبزٍ بصلابة اليشَبِ في بيئته، لكنه عطوبٌ عند حوافّهِ، طرفُ رباطٍ لحذاءٍ ذي قياس صغير، متكوّر وقصيم، وأسود. يتبيّن بعد فحص دقيق، أنه جسمٌ ناشف لدودة أرض، حفنة دقيقة من تراب صلصالي، تحول إلى غبار، ومُلَبَّس (لا بيكي شانت) الطريّ منه والصلب ضعيف مُصلَّب من جديد، يتراوح تلبيسه بالشوكولا بين الرمادي والكستنائي، سدادة زجاجة بيرة، منديل قماشي، ملفوف بشكل كرة، لُصقت فوقه عشرة من حراشف السمك التي فقدت لمعانها وعاجَها، وشيعة من سلك مخدوش مقاومته ٨٠٠ غ، وعشر خرادق من العيار الصغير، وغطاء من خشب البلزا للقلي، أحمر وأصفر، مكسور، وبقايا سندويشة جامبون في ورقة ألمنيوم سليمة بشكل غريب مع أنها لا تؤكل، مغلّف يتضمن فاتورة كهرباء مع قيمتها التي لم تُرسَل أبداً، بعضُ سُرفات الذباب الميّتة، المتطاولة، والقاسية والقاتمة، الشبيهة ببراز القوارض، ثلاث حبات من العلكة بالكلوروفيل، أنبوب مكسور من نوع روبيفيكس، ولفّة ورق صحي وردي اللون، كتاب الأمير لمكيافيلّي بطبعة مدرسية قديمة، قلم رصاص طوله ثلاثة سنتيمترات معضوض في كل أنحائه، أُكرة كبيرة كالبيضة، ملساء تماماً، مثالية للتزلج. قائمة مُشتريات «معكرونة، زبدة، خس مثلوم، كبريت، عصير مرّكز، ثلاثة أضلع خنزير، ثلاث لمبات باستطاعة ٦٠ واط، ملح لكنس الثلج، لا تنسَ البيضَ!» - لا أعرف إن كان تم شراؤها، مطاط، ورق تغليف أوليّ من نوع شارلو حافظَ على رائحته اليانسونية. نهاية القائمة. للبنطالِ أربعةُ جيوب فضفاضة وعميقة من الأمام.

فقدَ لونه. لا شك أنه فقد تصميمه وشبابه مع مرور الزمن، فهل كان من الخاكي (الأصفر الغامق)، أم أخضر فاتحاً، مع أن الأخضر الفاتح لا يبدو لي لوناً مناسباً لبنطال صيد، لكني أتذكر أنه لم يكن يُستخدم دائماً لبناطيل الصيد. وظيفتهُ هذه ليست سوى وظيفة ثانية، أي هي نوع من التقاعد الفاعل، وإعادة التأهيل المهني. مُبَقَّع بشكل مُخجل، وبطريقة لا يمكن تحديدها، وسخٌ. لا يمكن إلا أن يكون وسخاً، علي أي حال، ومتآكل أيضاً، لأني أرفض إرساله إلى الغسيل، وأتركه مرتاحاً في تخشيبةٍ غير مدفأة تقعُ في آخر حديقتنا. حينما أرتديه بعد عدة أشهر من السُبات، يصبحُ متيبّساً مثل مشمّع بحّار بروتاني، وأحياناً أفسّر هذا اليباس المتحفظ أنه بمثابة توبيخ. لكني أحبه بحالته هذه، متوحشاً، وسخاً محشواً بكومة من الأشياء التي تدل على استعماله، وسهو صاحبه في الوقت نفسه. قد يُظَنُّ أنه يتضوّع عفونةً، لكنه، يا للعجب، ليس كذلك في حقيقة الأمر، مع كل ما أحمّله إياه، وما يحتويه. حدث أن نسيتُ فيه سمكة ميّتة، وجدتها بعد أسابيع وقد جفَّ ماؤها، وفَقَدَت رائحتها تقريباً، وهيئتها الغريبة التي تشبه الطنجرة، بعينيها المطفأتين. رائحة هذا البنطال الممزّق المُرَقّع، المُنهَك، المحشو بعناصر متنافرة، هي رائحةُ ذلك العطر المدهش الصادر عن الطَحن، أو عن غرفة خلفية في مطحنة، أو حبة مجروشة، أو صوت. لكن رائحته الحقيقية هي رائحة خَفقة سريعة وسعيدة. رائحة عرض البحر، وحياة لا حدود لها، وساعات فراغ، بعيداً عن كل شيء، بعيداً عن كل الناس، على ضفاف الأنهار، وفي جوار مُلغزٍ مع الماء ومراياه، ومع أعماقه، التي تشكّل صدى لأعماق نفسي. كلاهما مضطرب أو رائق.

***

مَسْبَح

ذات عصر باردٍ من أيام الشتاء، حوالي الساعة الخامسة، وبينما كان النهار يتنحّى ويذوب في حليبٍ من مسحوقٍ ورماد، اخترنا الذهاب إلى المسبح الدائري في *نانسي - تِرمال*. نعبر الأبواب المزجّجة، فتلاقينا الرطوبة الكبريتية، كما لو كانت قبلة مُكتملة، مُعْتَلَّة وأخّاذة. نشتري بطاقتنا من عاملة الصندوق المحبوسة خلف نافذتها الزجاجية، فتجعلنا نفكر، رغماً عنها، بالمصير القاسي الذي نُخبّئه للأسماك الحمراء. نتقدم في الرواق الضيّق فنتلقى، من بعيد، صدى أصوات ترنُّ تحت القبّة، الأكثر بُعداً لكنها أكثر خفّة مما لو كانت في الحياة الواقعية، ومن رشقات الماء التي يصنعها السابحون والأطفال الذين يلعبون. ندخل إحدى المقصورات. ننزعُ طبقاتٍ من ملابس تتكوّم فوق بعضها كقشور متلاصقة، ثم نعلقها فوق المشجب. في الخارج، جماد أو ثلج. فجأة نصبح عراة. في هذه العملية ثمة خبثٌ، وتيارٌ مُضاد، لذيذٌ يمنحك شعوراً بالحرية، والثورة. لبس كل منا سروال السباحة، وخرجنا من الباب الآخر، لأن المقصورات هنا مراكز حدودية، من دون جمارك بين بلدين يتعارضان في كل شيء، أحدهما مرصوف بالبلاط، ومريب، ومشبوه، والثاني يملؤه ضوء مُنحدر من كوّة في السماء ليلامسَ ماءً أزرقاً موشًّى بالأخضر، والأسمر الفاتح، والرمادي فوق حواف المسبح الذي يشرف عليه درابزين من حجر رامبيلفيارذي البقع المتموّجة. تقوُّس وشفاء. المسبح دائري، ومياهه معدنية حارّة. يتخبط الناس فيه أكثر مما يسبحون. يضحكون، ويثرثرون، ويثفثفون. الحياة فيه

تلتقي من طرفين: نلتقي فيه بأشخاص مُسنّين، ورُضّع يكتشفون، وهم في أحضان أمهاتهم، فتور السائل ومداعبته. يبدو الهواء مُرطّباً في هذا الجناح الذي لا مذبحَ فيه، وتهرب الكلمات، والزقزقات من البطن الواسع الدائري الذي نطفو فيه ونحن نفكر بالمصدر الخفيّ، الذي لهذا الماء النافع ذي الروائح الدوائية والآسنة، تحوله دمعة من الكلور تركيباً مُهيجاً خفيفاً يوقظُنا من نقائص الأرض ويسكِرُنا. الحرارة هنا دائماً أعلى منها في أي مسبح آخر، بحيث يمكن البقاء لاخوف علينا من البرد، في قلب الماء، في حالة من انعدام جاذبية تتوافق مع تقلبات النفس، والراحة، والحلم، ومفاجآت الكتابة المشوشة. فننسى مدينة نانسي. نرى أنفسنا في بودابست، أو براغ، أو في مكان ما بعيد في قلب أوروبا. ونعود عبر الزمن، إلى اللحظات التي سبقت المذابح الكبرى، إلى أيام العائلات الملكيّة والعربات التي تجرها الخيول، وتتراقص أمامنا، عبر الأبخرة، أشباح لاعبي الشطرنج، والمستشفين بالمياه الحارة من ذوي الكروش وهم يعلّقون على *الانفراج الثلاثي* [بين روسيا وفرنسا والمملكة المتحدة في القرن التاسع عشر] ويدخنون سيجارة توسكاني Toscani.

***

المبَولات العامة

عليَّ أن أذهبَ بعيداً لأجد مِبولة عامة. لأن فرنسا ألغت، منذ زمن طويل حق التبوّل المجاني. تذكر أحد مؤسسيّ العقارات المدينية وصفة الإمبراطور فيسباسيان vespasien. أي فرض ضريبة على التبوّل ؛ حيث عليك دفع قطعة نقدية وإلا دفعتها سائلاً. فضلاً عن هذا، تلك الغرف الأوتوماتيكية القبيحة، التي يغلق بابها من دونكم بصوته الأشبه بزمجرة المقصلة، لا تشبه أبداً أماكن الراحة التي سادت في زمن غابر. كانت تزيّن المتنزهات، والحدائق، العامة والأرصفة؛ففي هذه تقبع وحيداً بشكل مأساوي. معزولاً، لا ترى نور النهار، ولا تسمعُ صوفرة جارك المنهمك مثلك. أُحبُّ الهندسة المعمارية القديمة للمبولات العامة، المصنوعة من حديد متقن، ورفيع ودنيوي تقريباً، وبمنحنيات مرنة، أو المبني من حجارة سميكة، وإسمنت خام في بعض الأحيان غير قابل للهدم، ويبعث الراحة في النفس. يتبول المرء فيها غير بعيدٍ عن المارة. تسمعُ ضجيج المدينة التي غادرتها للحظة، ونتبادل فيها أحاديث تافهة. فيها، يعبّرُ بعضهم، بكتابات صريحة أو عصية على الفهم - أتذكر بنحو خاص تلك العبارة الغامضة « grelot j'aurais tes épandages[1] » - وآخرون يحددون لبعضهم مواعيد، ويفتشون فيها عن غانية، أو يمارسون الحب بطريقة عنيفة وسريعة. وهي

---

١ - ليس لهذه العبارة معنى باللغة الفرنسية، كما يقول المؤلف. لكن لو ترجمناها حرفياً لقلنا: أيها الجرس، سأقف على(سأمسك ب) انتشار صوتك، أو تموجاتك!

إحدى ذرائع بعض الظرفاء لإغلاق الكثير منها. الروائح القوية المنبعثة منها لا تزعجني، ولا حتى القذارات التي تلطخها، لأننا نعرف، ونحن ندخلُ إليها، بأننا لسنا بصدد زيارة محل للورود. البول يزنّخ، والغائط، والكريزيل، وماء جافيل، لها روائح نتنة من شأنها أن تشكل لائحة طويلة من بؤسنا. فمنها نتعلم درساً في الأخلاق بأقل التكاليف. استنشاقها يعادل فعل الإهانة والندامة. عالمنا يحلم بألا تكون له رائحة، أي أن يكون غير بشري. في العصور التي سبقت عصرنا، كان لكل شيء رائحته في السرّاء والضرّاء. نطارد الروائح، روائح أجسادنا، وروائح مدننا، كما نطارد منحرفين خطيرين يذكروننا بأنَّ لنا أمزجة تفسدها هذه الروائح. كنت أدخلُ، وأنا طفل، إلى إحدى المبولات العامة التي تفوح النتانة منها. لم يكن ذلك يدهشني أو يضايقني، لأني أرى فيها مرآة من نوع خاص، لا تشّوه الأشياء كثيراً، فأعرف من أنا. أحياناً تسمعُ متشرداً يشخر، يزيّن الفضاء المحدود بفوحان نبيذه الغليظ، وتبغه الأسمر. أتصوّر أنه إلهٌ وقع بين البشر، ساتراً طبيعته الحقيقية تحت أسماله المُثقّبة. إذاً، لمَ لا أعترف له بتستره خلف قناع متشردٍ، مؤخرته فوق الأرض في إحدى المبولات العامة، شاخراً سعيداً في تجمّع الذباب؟ لكننا صرنا نلغي الآلهة أيضاً.

***

مطرٌ عاصفٌ

يضرب بقبضته فوق الأرض كما نضرب بقبضتنا فوق الطاولة. يسعى إلى العراك منذ فترة طويلة. ثمة أيام وأيام تغصُّ بسماءٍ وحرارة لاهبة جافّة صَقَلت الأفقَ، وجَعَلت الريحَ دابقةً، وأثارت الضرع والبشر. الليل نفسه رفضَ أي رطوبة، فاستسلم، كأيٍّ من ساعات النهار بحسٍّ شائن من نداوةٍ كانت تظن نفسها في بيتها وفي كل مكان، وفي أي لحظة. نفتح النوافذ على مصاريعها بلا جدوى. ثمَّ، عند بداية فترة العصر، تبدو السماء في الشمال حول منطقة سوي *seille*، ممتدةً لها صَريف. نلحظُ ومضات صمّاء، كما لو كانت شكلاً لنهاية مُتَلَجلجة للعالم. فجأة تعمّ الظُلمة. يذهب بي التفكير إلى أيام الجمعة المقدسة حيث نرصدُ الطريقة التي ستحتفل الغيوم من خلالها بمصلوب الجلجلة. فرقعةُ نورٍ ورعبٍ. يسقط فأسُ الصاعقة فوق شجرة حورٍ بالقرب من الغدير. لم نرَ قدومها. شجرة مشقوقة إلى نصفين، مختلجة، عارضة لحمها الأبيض من الأعلى إلى الأسفل كفخذٍ شفافٍ خارجٍ من جوربٍ مُمزَّق. هي الصاعقة أيضاً، ثلاثمائة متر إلى اليسار فوق البرج الكهربائي. خطوطٌ هيستيرية فوق الجلد. توقيعٌ لفنانٍ متعجرف. عجلات تهرب ناهبةً الأرضَ متّجهةً معاً نحو النهر لتتوقف فجأةً، حمقاوات، فوق الجرف العالي، من دون حركة. تمتمة. تزداد. إنه المطر الذي، بعد أن أخفى ضفة نهر رامبيتان تحت ستارة مُحدّدة، يعدو كمستنقعٍ في الهواء، يبتلعُ مجموعات الأشجار المعزولة قرب القنال الكبير، ويشرب الحقول، ويسيل نحو بيتنا، ويسري خفية في الحدائق الخلفية. القطة تنزلق تحت الحجر الذي

وضعناه ليكون بمثابة نقطة استناد لأقفاص الأرانب. قطرات معزولة تقدم العلامات الأولى، الكامدة، بالقرب من قن الدجاج، وهي أكبر المجموعة، جيش ملتوٍ وغزير من مرتزقة يطعنون، من دون حياء، آخر بتلات الزنابق، ويمزقون أوراق شجيرات الكرز التي ما تزال هشة، ويهينون أعواد الصليب (بيفوانيا) مجبرين إياها على حني هاماتها الكثيرة قبل سحقها في الأرض، حافرة فوقها ملايين الثقوب الكبيرة حجم الواحد منها بمقدار ظفر الإبهام. مذبحة أوليّة. قصفٌ. طوفان. الماء يرطّب الهواء والسيف. إنه خطمُ وحشٍ ينفتح في وجوهنا، نَفَسَه الاستوائي شديد الحرارة. أنهار صغيرة تنقل مياهها السمراء في الدروب، فتتشكل مجاري بخارية عند أقدام شجيرات التوت البري. ترتجفُ قليلاً، وتبتسم، بينما، ونحن في منأى عن العاصفة، نتنشق دهن الأرض الذي تفرزه المذبحة، تربة المستنقع العضوية للمستنقع، تُربٌ، ونسغ، وسكر تويجات الزنبق بنوّاراتها الباكية أشبه بالأسماك، وبر حيوانات ميؤوس منها تخور مع بعضها من بعيد، وحساء أرض، نافر نتيجة ارتجاف البرقوق الأخضر، لكن العاصفة أثارت طبيعته، راتنج لا نعرف مصدره، وأخيراً هبّت الريح مُنتقمةً، لتصل هذا كله ببضع قطرات من المطر، وتدفع ركام الغيوم المُنهكة، وقصف الرعد نحو الشرق الذي ما يزال هادئاً في هذه الساعة.

***

سَمَك

فيرون. غوجون. تانش. شوفوسن. آبليت. هورتو. باربو. ترويت. كارب. بريم. بيرش. ساندر. بروشيه. فاندواز. روتانغل. جسم السمك مرنٌ، أملسٌ، تمرُّ فيه طاقات كهربائية. ينزلقُ الماء عنه، يطرده المخاط من دون عنف، يترك في يد الصيّاد رائحة نبع وبقلة مائية، وطراوةٌ، وقوقعةٌ ناعمة، وضريعٌ، وما يخرج من عرض البحر، حتى لمن يسبحون في المياه الحلوة. عليك أن تستنشقه لكي تقترب من سر الصيد. أن تكون هناك، على حافة الجُرف، في اللحظة التي ينبثق عندها، بعيداً عن سطح النهر.عليك بتهدئة جسم السمك المختلج بعد أن تمسك الصنارة به، وعدم المبالغة في الضغط عليه بأصابعك، وبسطهُ فوق العشب إذا اقتضت الحاجة، ثم ترفع اللسان المعدني الدقيق من فكّه المفتوح. عينُ مستديرة مُذَهّبة الحواف تنظر إليك. تحكم عليك، والعتب يملؤها. تلمع كباقي جسم الحيوان. حجر كريم صاف ناعم ومشغول بدقة، بسُمرته الذهبية وتدرّجاته بين الأخضر والأزرق والرمادي. منذ سنوات، أحلم بهذا اللقاء وتلك الرائحة. فهي لن تتكرر أبداً. أقضي ساعات من دون أن اصطاد سمكة واحدة على حافة نهر مورث، أو القنال الصغير، أو مستنقع بونسيه، أو حتى مضيق سانون: من أنبوب التصريف هذا يخرج الدمُ القادمُ كلّهُ من المسالخ الواقعة في الأعلى، والتي صارت أبنيتها ثكنةً لرجال الإطفاء. دم الثيران، والخيول والخنازير السميك، الأحمر الحاد أو الأسمر الحصيب في بعض الأحيان يصبُّ في النهر فيصبغ مياهه لعدة أمتار. ترى غيوماً قرمزية وهي تُدحرجُ استداراتها في

التيارات الخضراء المزرّقة قبل أن تتلاشى. الأسماك تسبح في دم الموتى وتستمتع بذلك. في أيام المذابح الكبرى المُبرَمجة، يكلف المكان غالياً. ينبغي أن تنهض باكراً لتحدد أرضك وتنشر فوقها صيدك. هناك، أتمكن أخيراً من اصطياد سمكة من نوع الترعان، أو *الصهباء* الأولى كما يقال هنا. زعانف قرمزية، وحراشف ليّنة، رائحة طحالب وأعماق. الأعجوبة الأولى. قصيدة حراشف رطبة. سمك ذو قواف من فضة، رحتُ أشمّها طويلاً، وقلبي يخفق، كحيوان يشمّ حيواناً آخر، من دون حياء وخجل.

* * *

مَرْهم

طفولتي، طفولة إنسان مريض. في أزمانٍ أخرى، لا شكَّ أني قد أكون ميتاً صغيراً جميلاً، ما إن تعمَّد حتى دُفن في مُربّع هزيل من القبور البيضاء المزروعة بتماثيل ملائكة صغيرة جصيّة، والتي تتكوّن منها مقبرتنا. عشتُ بفضل تقدم الطب. اخترت العصر المناسب. غالباً ما أرى الدكتور جواشيم مائير - بيش، ذا الوجه الجميل الأشبه بوجه مُفكِّر، بنظارتيه الجديّتين، وثناياه الرافعة لشفته العليا قليلاً، كما الممثل الرائع جان بويز الذي ما زلت نادماً حتى اليوم على أني لم أتعرّف عليه. قاعة الانتظار في عيادته مُريحة. أُحسُّ بالارتياح فيها. مقاعد (السكابي) تلتصق بمؤخرة من يجلس فوقها. رفوف المكتبة لا تضمّ سوى كتب غير مفهومة. مكبراتُ صوتٍ مخفيّةٍ تبثُّ سيمفونيات وسوناتات. يداه تلمسان جبهتي، وبطني، وصدري. يُصغي إلى قلبي وينظر في حنجرتي، لكنه لا يداعبُ خصيتيّ أبداً خلافاً لطبيب شركة التأمين التي ينتسبُ إليها أبي، ليتأكد ما إذا كنت قادراً على السفر إلى مخيّم العُطلة. في تلك الفترة، كان من المهم جداً أن تكون الخصيتان نازلتين إلى المكان الذي ينبغي أن تَصِلاه حتى يُسمح لك بالمشاركة في ذلك المخيم. لم يكن لدى أهلنا ما يقولونه. يحمل الدكتور جواشيم مائير - بيش اسماً ألمانياً لكنه مُسالِم. لا شيء يربطه بأولئك الذين قتلوا أعمام أبي وأبناء عمّه في عام ١٩١٥، وحرقوا مزارعنا، وهجّروا صديقتيّ أمي الأختين لازاروفيتش وخنقوا عائلتيهما، وحرقوهما باستثناء أخ واحد، في عام ١٩٤٢. يرتدي صدرة بيضاء يزررها حتى الأعلى، لكن حينما يأتي لمعاينتي في البيت، بعد ارتفاع حرارتي الشديد الذي يمنعني من الذهاب إليه، تراه ببزته الكاملة وربطة عنق، وكنزة مفتوحة على

شكل حرف V. أرى مرة أخرى قلمهُ الحبر بريشته المذهبَّة، وحقيبته الجلدية التي يُخرج منها سمّاعته، ودفتر الوصفات. عائلته كبيرة يتنقل معها بسيارته المرسيدس. الصيدلاني غوريوس يملك سيارة مرسيدس أيضاً، لكن لا بدَّ أن عائلته ليست كبيرة لعدم وجود سوى مقعدين في السيارة. ذات يوم، طلب مني السيد غوريوس أن أختار بين الشراب المضاد للسعال ومرهم لمعالجة الباسور لأني أفتقر إلى المال الكافي لدفع ثمن الاثنين. معضلةٌ لم يجعل منها كورناي واحدة من ذرائع مسرحياته، وكان مخطئاً: هل على المرء تفضيل سعادة الحنجرة أم راحة الشجر؟ لا بدّ أن يكون المرهم لأبي. عدتُ أدراجي خالي الوفاض. انتاب أمي غضبٌ عارم، فاستبدلنا الصيدلية. مرهم. الكلمة وحدها تفضي بي إلى حافة الشفاء. أحبُّ كل شيء في المرهم. الأنبوب، أو القطرميزات الزجاجيّة الصغيرة السمراء التي تُحبَسُ فيها الطلاوة القشريّة، اللاصقة في بعض الأحيان، وألوانها التزيينيّة الشاحبة لا سيما روائح الأوكاليبتوس، والكافور، والخردَل. اتجهتْ أمي نحوي، وجلست على حافة السرير، وفكت أزرار قميص بيجامتي. وضعت فوق طرفِ إصبعها قليلاً من المرهم، وسخنته قبل أن تدهنه بنعومة، لتمسّدَ به جذعي الذي ليس سوى عظم وجلد. أشعرُ فوراً بحُرقة نافعة، في الوقت نفسه أشمُّ عطراً قوياً لغايةٍ تغصّ بروائح الراتنج والنعناع تجتاح غرفتي. فجأةً، بفضل هذا العطر، أحسُّ بتحسن بفضل عضّة المرهم الحارة التي نفذت حتى قصباتي المزدحمة، وحضور أمي الحنونة، وبسبب يومَ العطلة هذا، الذي لم أذهب فيه أيضاً إلى المدرسة لكن يمكنني القراءة الكثيفة والحلم، ورؤية أمي في كل لحظة من ساعات النهار حيث عادة ما تكون وحدها.

***

سجن

السجن مِرجلٌ مُغلقٌ تسبحُ فيه أجسادٌ وأرواحٌ، وأحلامٌ، وندامات، وهيجانات، يقضي المرءُ فيه أسابيع وأشهر وسنوات.فيه يأكل، وينام، ويتعلم، ويَنسى، ويجترُّ، ويدمّر نفسه، ويسقط، وينهضُ، ويتغوّط، ويستمني، ويلاطُ. وفيه يحاول أن يقتل الوقت. مع ذلك فالسجن ليس مكاناً وحشياً. نحن أوجدناه، وبنيناه على صورتنا. إجمالاً إنه للبشرية كالروح للعطر: مُطلقٌ مركّب. طيلة اثني عشر عاماً أتردد على السجن عدة مرات أسبوعياً لألقي فيه دروساً. حتى عام ٢٠٠٠. منذ ذلك الوقت صار يسكن أعماق كينونتي، وحساسيتي وحُكمي أيضاً، ولا يريد مفارقتها. لا أسعى إلى طرده منها. إنه أحد الأماكن التي لها رائحتها: المشفى – مكان مكيّف لا أعرف كيف –، بيت المتقاعدين – مرقٌ شفاف وأجسام هامدة –، الجمناز – أقدام راشحةٌ، وعرقٌ، وعشبٌ كاوتشوكي فوق السجاجيد الأرضية. السجن واحدٌ من تلك الأمكنة. قد يقول أحد الحمقى، لمجرد القول، إنه مكان تفوح منه رائحة السجين. قد لا يكون مخطئاً تماماً. دعونا نقول بالأحرى: المسجون أو السجن هذه الحالة مخالفة للإنسانية التي هي بطبيعتها بدوية مترحّلة، متجوّلة، وحّرة. عالم السجن، ومبدأ السجن نفسه يُنتجان تصرفات خاصة بهما، وحالات مرضية لا نجدها في مكان آخر، وروائح خاصة. هناك، كل شيء مُطلق، مُلّطفٌ، مختنق وكل ما يمكنه الانتشار في الخارج، من غير حدود، يركدُ بين الجدران السميكة، وتحت الكوى الزجاجية العالية. وفي المجال الضيق الذي تحجزه القضبان. عطور

الحياة المكبوحة والمُهانة، والبطيئة، تفقد في السجن تجانسها. إنها تكمُد، ولا تعود قادرة على الرنين كما ينبغي. ما إن تدخل، تتفكك، وتذوب. تتأثر بأكسيد البرونز فوق الجدران العتيقة، ودهون الأرض مع أنها مغسولة، وحزن الرسوم الباهتة المُجدَّدة في كل ربيع. وهي، كالكائنات التي ترافقها، لا تعود تبذل جهوداً لتظهر وتتغطّى. إنها تتخلى عن طبيعتها وتستسلم، وتصبح بشكل موحَّد. وهنا، لا شك، يوجد ما يميّز عطر هذا المكان، الذي يعد كل شيء في عالمنا، مع أنه غير موجود فيه: ترفض الروائح أن تكون ما هي عليه وأن ينحاز بعضها عن الآخر. إنها تترك نفسها تنزلق في هجران نفسها. إنها تتخلى. عطرُ السجن هو عطر مُقوَّس.

***

كنزة

تحتفظ الملابس بذكرى من ارتدوها، ثم تنفصل عنهم ذات يوم، بفظاظة ومن دون إخطار. تلك ميزة الأشياء. تتصفُ الموادُ بخيانة أسوأ من تلك التي تجعل من البشر مذنبين. نحمل فوق أجسادنا أقمشة، وأصواناً، وفراء تعرفُ أشدَّ خصوصياتنا، تستنشقنا، وتشبهنا. نترك في فجواتها عطر جلدنا، وبصمتهُ الشميّة وتنفسه. لهذا أحتفظ بكنزة قديمة كان يرتديها عمي ديديه حينما يأتي إلى منزلنا للعمل. نهارٌ من عشر ساعات وأنا بجانبه، بين الغبار، والأنقاض، والجصّ، والملاط، وسجائر الغولواز الزرقاء، وما نتشارك فيه من زجاجات البيرة. إنه البيت الثاني الذي نعمل فيه على هذا النحو. كنّا ثلاثة في تجديد الأول. صهري ياشو، بوصفه المشرف على العمل. عمي وأنا بوصفنا عاملين. ذكرى سعيدة. توفي ياشو بعد بضع سنوات. ذات صباح، انتظرتُ عمي بعد أن حضّرتُ القهوة، كالعادة. لن يأتي: لقد مات خلال الليل. كنزته ترتاح فوق أحد السلالم. بشريّة تقريباً. مُتعَبة. مثقوبة في بعض المواضع وفوقها بقعتان صغيرتان من الجصّ الطريّ، التفّتا في ألياف القماش. أخبِّئُ وجهي فيها، كما لو كنتُ أُخفيهِ بين ذراعيّ كائنٍ محبوب، باكياً. عمي هناك، حاضر بشدّة، في عطر سيجارته البارد، وآثار عطر ما بعد الحلاقة الملطّف، رخيص الثمن، وغبار الإسمنت، وصمغ ورق الجدران، منبثقاً من خيمياء كثفّها الملبس رغماً عنه. لا أقوى على إلقائها في سلة المهملات، أو ارتدائها. أودعتها إحدى الخزائن، بالقرب من تخشيبة السقف، حيث أخرجها غالباً لألمسها وأتنشقها، وأستعيد بفضلها هذا العم

الذي طالما أحببته منذ الطفولة، هذا الذي رآني أكبر، كأبٍ ثانٍ، لكنه متحرّر من أعباء الأبوة وهمومها، والذي كان في الواقع، أكثر رشاقة وطرافةً من أبي. الحدادُ عليه، يعني إطلاقَ حفنة من الحياة في ملامح الموت. كلنا يعرف أن عينيه لا تغشيان إلا للحظة وجيزة، لكن هذا يريحنا، ويمكّننا من الاستمرار. ذات يوم، بينما كنت أقرّب الكنزة من وجهي، لم أعثر على شيء. تَحلَّلتْ من كل شيء، بعد أن هجرها عمي، ولم تعد سوى ثوبٍ رثٍّ، لا ذاكرة فيه ولا روح. ومع ذلك تراني أنظر إليها. ما زالت هناك، فوق، قريباً من السماء، في خزانة السقيفة.

* * *

عُفونَة

تلاميذ في صفوفٍ صغيرة مضغوطة، تحت المطر المتعرِّج، في أكثر أشهر الطفولة إحباطاً، تشرين الأول، تشرين الثاني، أو آذار. أشهرٌ لا ثلجَ فيها، بل مجرد تلوّي وبرد. حينما يهطل المطر مدراراً فوق سكان لونيفيل، تُلغى النزهة المقررة للتلاميذ المقيمين عصر يوم الأربعاء. إذاً، لن أتمكن من السير نحو جوليفيه، وشانتهو، وفوراس الصغيرة، أوميهنكور، والإمساك بشيءٍ من الطبيعة، والمروج، ومتاهات النهر لأجعل منها أحلامَ يقظة، ورؤيةً للأثواب البيضاء والسوداء التي تتلفع بها الأبقار، المليئةُ ضروعُها بالحليب الفاتر، وتنشقاً لمخازن الغِلال المفتوحة بأحشائها من علفٍ وقشّ. لن ألمح، من بعيد، ما يميّز سلسلة جبال الفوج عن أكدانون الذي يشبه مربعاً مُنحرفاً أزرقاً، أعدّه بمثابة بوصلة عاطفية أقرأ من خلالها أصولي، وعلّمتني معنى المُتعة. غادرنا المدرسة الداخلية تحت أنظار السيد شابوتو الطيّبة. قادنا المراقبُ إلى مكتبة البلدية المستندة إلى أبراج كنيسة سان - جاك الصلصالية.يبدو لي أننا نبقى فيها أكثر من ثلاث ساعات بقليل. جان كريستوف فامبوا الملقَّب بـ نيشون، الذي اختار مغادرة الحياة في سن التاسعة عشرة، وهنري لولييفر، ويانيك واين، والآخرون، رؤوسهم مُطأطئة، يقرأون أو يغفون في صمت زاد خفوتهُ. غَبَشٌ بَكَّر في قدومه، ليعودإلى زيارة قاعة القراءة بضوء لامع رمادي. الأرضُ تغطيها صفيحةٌ خشبيّةٌ واسعةٌ، غير مُبَرنَقَة. الكتب فوق الجدران، صغيرة وكبيرة، قديمة أو حديثة، مضغوطة إلى جانب بعضها مثل جيران بِريدين. أقرأُ حتى يصيبُ

الإنهاكَ عينيّ. الزمن لا يكترث بالانتقادات. لم يعد لي مكانٌ أو عُمر. أقلّب الصفحات متنشقاً رائحة الورق القديم، والحِبر الجديد، والأغلفة المنسوجة بغبارٍ تتزاحمُ ذرّاته المرعوبةُ تحت أجفان المصابيح الكهربائية، وكذلك رطوبة كتبٍ ثقيلةٍ لم تُفتح، وتبدو، في أغلب الأحيان، متألّقة تتقيّح دموعاً ضَنينة. لا شك أني هنا، في هذه المكتبة المتخلّفة، قابعٌ في أعماق الصمت بين وجوه رفاقي الغائبة، وأجسادهم الضجرانة التي أسكرتها العفونة- remugle - وهو الاسم الذي يُطلق على رائحة الكتب القديمة كما عرفت لاحقاً -. أدخلُ بلداً، هو بلد التخييل وآلاف الدروب التي لم أغادرها منذ ذلك الحين أبداً. أنا شبيه الكتب. هو المكان الذي أسكنه، قارئاً وحِرفياً. وهو أفضل ما يعرّفُ بي.

***

استيقاظ

أخرجُ من الليالي بدهشة الحيّ. كلما مرَّ الوقت، أعدّ هذه اللحظة العاديّة بمثابة سكونٍ هشٍّ يتأبّد. أخشى أن يتوقف. ذات مساءٍ، عند غروب الشمس، وأنا أطفئ النور، وأعطي قُبلة لتلك التي أحبّ، خشيتُ أن أقوم، للمرة الأخيرة، ببعض الحركات المعتادة. لا أعني هنا الخوف من أن أموت، بل هلعٌ من أني لن أعيش بعد، أي أن أسلكَ وحدي دروباً مجهولة. إما دروب الموت التي لا يعرف أحدٌ طبيعتها، لكني ألمحها طريقاً مسدودة، ولا يمكن لأحاسيسي المعطّلة وضميري الخامد باتجاه واحد أن تقدّر لي حجمها، أو دروب الحياة، الحياة المنبتّة عن وجود محبوبتي، الذي سيكون عندئذٍ وجوداً ناقصاً يستخدم الوسائل الفاجعة، وجوداً دامياً. أيضاً، حينما أستيقظ وأستعيد مكاني تدريجياً في العالم الغارق في قلب الصباح، والنور الطالع، تروح يداي، كما لو كانتا مُمغنطتين، تلامسان الجسد الذي يرتاح إلى جانب جسدي. أشعر بحرارة هذا الجسد، بإيقاع تّعرقه البطيء، مهما كان قليلاً، هو، الذي لا يشك بأني سأغادره خلال النوم، وألصق جسماً بجسم، وأنا أشرب الدفء الليلي المشبوك في نسيج الأغطية، وذلك النسيج الأنعم والأخف، أي نسيج قميص النوم الذي يغطيه، تاركاً الكتفين عاريين، والذراعين، وأول الحنجرة التي تحس يداي فوقها بالحياة والدم النابض. ههنا أكثر اللحظات خصوصية، والحب الذي لا يحتاج إلى أي كلمة ليعبّر عن نفسه. عطور أجساد المحبين التي عبرتها مَعاً، لكنَّ نوم كل منها وحيداً فَصلها عن بعضها. للساعات الليلية علاقة بتلك الطافية في حكايا الجنيات؛

حيث الأميرات المُخدَّرات في نومهنَّ الأبدي ينتظرن قبلةً من أمرائهنَّ. ما أتنشقهُ هو دفء الحياة المفعمة براحةٍ تخلّت عن الجسد، وأَرختهُ كحرير ناعمٍ تحرر من دَرْجِهِ. قبل أن تفتح محبوبتي عينيها، بل حتى قبل أن تراني، وتبتسم لي، ما أريد أن أحتضنه وأنا أستنشق جلدها وغرّتها، في حضورنا المشترك الذي يجعل من هذا الاستيقاظ استعادة لحبنا، ذلك الفجر المتجدد لانسجام دائم.

* * *

أنهار

حُفاةٌ فوق حافة السد، نطلُّ على الشلاّل. صبيانٌ صغارٌ سعداءٌ بفرقعة الأمواج. دراجاتنا الهوائيةُ ذات السرعات العشر، من نوع بيجو، تنتظرنا فوق درابزون المحوّل الكهربائي، مقفلة بقفل مزدوج. يجري نهر مورث كأفعى البوا الشبعانة السمينة، الممددة فوق خاصرتيّ السد وجزيرة الغربان. عميقة. لنا أن نتصوّر الغرقى الواجمين كلهم يجرجرون همومهم بين ماءين.

يأتيكَ بناء عجيب من البيتون، أشبه بمِزلقة عرضها عرض السرير وطولها ثلاثين متراً. تجري الأمواج فيها سريعةً، خفيفة السماكة – لا تكاد تلامس ربلات سيقاننا – لتحرك طحالب أشبهُ بشجرة خضراء تمنح التيّار الذي أصبح شفافاً، فجأةً بريقَ جدولٍ جبليَّ. نصطاد في الزبدِ الفوّار المُصمّ للآذان؛ وما يقذفه من رذاذٍ ناعمٍ، وماءٍ فاترٍ فوق بقايا الطين.ياله من ازدحام عظيم. شلالات نياغارا، ونهر زامبيز. ننجزُ مغامرتنا فوق دراجاتنا. بعد أن تمتلئ الشبكة بالأسماك الحمراء،، وسمك الأعماق، نعود مساءً إلى البيت غانمينَ مُنهكين، فخورين، كما لو كانت حياة عائلتنا رهناً بها. بلد المياه الحيّة أو الميّتة. أنهارٌ وقنوات، وبركٌ، ومستنقعات تحيط بمدينتي وتعبرها، حيث كانت في الماضي تغرقها دائماً مع نهاية كل شتاء، فتجلب إلى شارع سولسي بيتو، حيث تسكن عمتي بوليت، وشارع مولان، مياهاً قذرة يخوض فيها السكان بمراكبهم لبلوغ بيوتهم. ذاكرتي تستحضرُ معلمين كباراً في كل مكان. الأب فراش، بفمه الشبيه بفم بوباي الذي عرّفني بنهر سانون. السيدتان غي وبولي – المرأتان الوحيدتان الصيادتان في دومبازل –،

لوبونسيه والأب بيرجيه عرفاني بالقنال الكبير، أما الأب إيدون فقد عرّفني بالقنال الصغير، والتقنية الدقيقة للصيد ببذرة القنبّ، وعميّ ديديه أطلعني على حواف نهر المورث. الصيدُ صبرٌ وقراءةٌ. قبل أن تلقي بخيطك في الماء عليك أن تفكَّ ألغازَهُ، وتسجّل نبضَهُ، وتقيسَ عمقهُ، وفِخاخهُ، وعوائقه. إنني عاشق لا تعوزني العشيقات، إذ يمكنني، وعيناي معصوبتان، تسميتهن بمجرد استنشاق أنفاسهنَّ. طينٌ وبقايا غازول في قنال المارن، أعوادُ قصبٍ يابسةٍ، وفمٌ آسنٌ، وطينٌ أسود في نهر بونسيه. رطوبةٌ خضراء عابرة تتضوّعُ من القنال الصغير. رشحٌ مُتَرَبٌ يأتيكَ من نهر سانون الجاري فوق الجروف الغُضارية. عطرٌ حلوٌ في بعض الأحيان، وَمرير أحياناً أخرى يخص نهر مورث الذي ينبت قربه الأشنان الذي نقضمه نيئاً كحمّيضٍ من بلادٍ بعيدة. أحبُّ تحالفَ الريف مع الماء. الأنهارُ تهدئ نفسي وتخطِفُني. لا شك أن أحلام الماء أفضل ما يناسب طبيعتي غير المتماسكة، لأني ما استطعتُ يوماً الإمساك بنفسي فعلاً بين أصابعي.كما أتذكّر سعادتي وأنا أجدُ نفسي، لفترة قصيرة، في مدنٍ محشورةٍ بين ملتقيات مجاري الأنهار: فوماي، في مقاطعة الأردين، مدينةٌ ميتةٌ، كانت في السابق مَقْلعاً للأردواز، يحيط بها نهر الموز عند أسفل الغابات، وبيزانسون التي عقد معها نهر الدوب حِلفاً، كما عقدت ستراسبورغ تحالفها مع نهر الإيل السريع. ربما تحتفظ ذاكرتي بالخوف من الحصار. الغريب أن هذا هو ما يجعلني أحبّ هذه الدفاعات الطبيعية، حيث الخنادق المضطربة كثيرة السمك، التي تعتقد المدينة أنها ترقدُ بينها بسلام. أظن أيضاً، بعد أن تأكدت من ذلك عدة مرات أن اللامبالاة،، وهذا النهر، وتلك الجداول تعطيني أخباراً عن بلدي الذي غادرته منذ زمن بعيد من خلال نفحات ارتفاع التيار المفاجئة. إنها إذاً

لحظات مثيرة تختلط فيها جغرافيّات الحاضر بالذاكرة، حيث لم يعد لي عمر، وحيث يُلعبُ معي من خلال هذا الحس المُفعَّل، ما يجعلني أندم على كوني هناك. ويسعدني، وأنا على بُعد ألف فرسخ من مكان ولادتي، أن أسترجع شذرات من روائح، كما يفعل عالِمٌ آثار صبور مع بقايا الفخار، ليعيد لصق اليومي القديم الذي انقطع عنه.

* * *

قاعة الصفّ

يتركُ الحبرُ فوق أصابعنا آثاراً بوليسية تتكفل خلال الاستراحة حنفية الماء البارد بإذابتهِ تحت سقيفة الإسمنت على شكل قطرات مُزرقَّة. نكتب وألسنتنا ممدودة بين شفاهنا، غارقين حتى الرقبة في صدّاراتنا التي تضيق علينا شهراً إثر شهر، ومَرافقُنا مسجّاة فوق القِمطر، وتنزلقُ الريشة التي يليّنها اللعاب، مليئة وفضفاضة، فوق الورق ذي المربعات. الحركةُ والتركيز هما ما يتميّز بهما ناسخ القرون الوسطى. طبشورٌ، صدرةٌ، لوحٌ أردوازي، وريشةٌ من نوع سرجان - ماجور، ونشّافةٌ ورديّةٌ، وحبرٌ مسكوبٌ في قادوسٍ فخاريّ مدموج في خشب القِمطر. الأسطورة القروية تجعل منا نماذج مثالية للمصوّر الشهير دوانو. يوم الأحد، نتنفس سُكارى، وأحياناً نأكل الصمغ العذب الأبيض المُشرَّب بِعطر اللوز الطازج. السيد فرانسوا يدخّن السجائر بأناقة، وهو يمرر يده اليمنى في شعره الفضّي. تراه يتخذ وضعيةَ الملك، حينما يطلب إلينا موافاة السبورة لطرح أسئلته علينا. ينتابني الرعب، مع أني أعرف الأجوبة. أشعر بخوفٍ لم أعهده قط. اللهم إلا في فترة لاحقة، في صف البكالوريا أمام السيد غوتال، أستاذ الرياضيات الذي لا يبتسم أبداً، ويتفرد بوجه نازيّ، وشعر أبيض محلوق تقريباً، ونظرة فولاذية تشبه نظرة لورانس أوليفييه في فيلم marathon man - بينما هو حتماً إنسانٌ طيّبٌ خارج ساعات الدوام. حينما نتردد، ينهض السيّد فرانسوا ويتجه نحونا، فيمسك بأصابعه الشعر الناعم النامي فوق الصدغين ويشدهُ في الهواء، ببطء، كلما أمعنّا في الخطأ. ألمٌ. ألمٌ يزداد ويكبر. نقفُ على مشط

القدمين لكي نخفف من قوته. نحاول الطيران. أرضيّةُ قاعة الصف مُلوّنةٌ، مصنوعةٌ من ألواح خشبية كبيرة تُغسل كل أسبوع بالماء المخلوط بمحلول جافيل. خشبٌ شاحبٌ، بالٍ، حَفَرتهُ أحذية أجيال التلاميذ المتعاقبة، يحتفظ في أنسجته برائحة الكلور، في الوقت الذي يحاول التذكير بطبيعتهِ من خلال روائح خجولة تفوح من أنسجة مخشوشبة، كصدى شمٍّ اختفى من الشجرة التي كان ينتمي إليها. وحينما أجد مثل هذه الأرضية في أماكن أخرى، كمقاهي القرية الضائعة، والقاعات الخورانيّة، أشعر حتى اليوم، بقدمي كأنهما تنتصبان على مشطيهما، وتأتي أصابعي لتهدئ آلام صدغيّ.

* * *

تنّوب*

يقال عن ابن منطقة الفوج إنه نصف إنسان ونصف تَنّوب، استهزاءً بطبيعته الصموتة والقاسية. بعيداً عن غابات التنّوب أعيش حياتي بإيقاع بطيء. يبدو لي أن ثمة مَن اقتلَعني من جذوري. أشتاقُ إلى لونها الأخضر الدائم، ومساحتها المترامية، ورائحة صمغها البرّاق، وإبرها المُسالِمة. كان والدي قبل الحرب، حطّاباً، وفلاحاً، وعاملاً كيميائياً.أما فترة ما بعد الحرب فقد جعلت منه شرطياً، لكنه لا ينسى غاباته أبداً. بيتُ ولادتهِ مزروع في نخاريبها. غَيضاتٌ قاتمة تصعدُ مائلة نحو صخرة سوا، وآثار قصر بيير بيرسيه، وممر شابلوت الجبلي حيث دارت معارك كثيرة خلال الحرب الأولى، وما تزال تحتفظ بجروحها. عملَ في كثيرٍ من أماكن قطع الشجر في وادي لابلين، وهو نهر ذو مياه تزخر بأسماك الترويت والفيرون، تحفّهُ طريق رومانية قديمة، ويشرفُ عليه جبل دانون حيث بُني معبد من الصلصال للاحتفاء بعبادة فيليدا. وهو أحد أكثر الأماكن صمغاً في فرنسا. لا يمكن للمرء أن يهرب من أشجار التنوّب، قديمةً كانت أم جديدة، سوداءَ أم شاسعة ذات جلال كارولينجي تقريباً، أو من الإيبيسيا الشبيهة بأشجار السرو المصفوفة كالكتائب على طول الدروب. حينما كنا نريد القيام بنزهة ريفية، نحمّل سيارة رينو ٤ بالسلال والأغطية، والمقاعد القابلة للطي، والسخانات، وأواني السَلَطَة، والكرات الحديدية، ومضارب تنس

---

* نوع من أشجار الصنوبر.

الريشة. لم نكن نبتعدُ كثيراً. نَعودُ إلى مكان الطفولة قربَ جدولٍ صغير في قلب غابةٍ ندخلُ إليها عبر درب مفروشٍ بالرمل الورديّ. زاويتنا حيث تختفي الشمسُ خلف الأغصان الملتفّة على بعضها، ومن الظلّ تفوحُ رائحةُ النسغ والطحالب. ماءُ الجدول يُزرّق أصابعنا إن تركناها فيه مدة طويلة. عندئذ تتكفل البيرة والنبيذ بمعالجة هذا الأمر سريعاً.

غالباً ما كان يرافقنا العم ديديه، والعمة جانين، وعمتي الأخرى، بوليت. التي طالما عرفتها أرملة، لأن زوجها نينيس توفي قبل ولادتي مصعوقاً بالكهرباء في أحد مصانع الملح. نَقفُ مستعدين لالتقاطِ صورة بقياس ٦ × ٩ ونحنُ نقف على الضفاف المسنّنة، أو جالسون حول طاولة المخيم. ابتسامات، ومايوهات تغطي الصدر، وبطونٌ ملآنة. أشجارُ التنّوب تحيط بنا بأغصانها المنخفضة. عالمٌ من الغبطة، حيث هسهسة النحل، وسَيْر البزّاق البطيء، والمنامِل الهائلة، والقاق يهرب أزرق اللون، تاركاً وراءه أحياناً ريشةً بيضاء ملونة بالرمادي، أغرُزها في شعري. أبحث في الطحالب التي تحتفظ، حتى في أحرّ أوقات الصيف، بقليل من الرطوبة، عن طَبقة إسفنجيّة مُطرّاة. أحياناً انتزعُ منها مخدّات صغيرة أضعها فوق فخذيَّ. هنا يمكن أن أتّسخ، وأتدحرج فوق السرخسيّات، وأقلّد العجائز بتلطيخ وجنتيَّ بالتراب الذي تفوح منه رائحة جذر الخلنج. حَقّي. أداعبُ جذوع التنّوب. تتلطخ يداي بصمغٍ يشبه الدموع. أقتطعُ بلّورات عطريّة شبيهة بسكاكر الحلق، تكون عادةً ملتصقةً فوق جروح الشجرة. شوهتها طيور النقّار بمناقيرها الشريرة. نقّارات خضراء، وعراقيب تُلقّبُ بذوات الذيل الأحمر، وهي طيور ضخمة حفّارة. الزمنُ لا ينتهي. أسمعُ ضحكاتِ

البالغين وهم يهضمون. آكلُ ما أجده من ثمار الزان والتوت البري، وعنب الأحراج الناضجة، والبراعم الغضّة. أود أن أكون يحموراً. في طريق العودة، أنام في السيارة، متلفعاً بأحلامي الحيوانية، وغطاء نجد فوقه، بعد عدة أيام، إبرِ التنّوب وبلّورات الرمل.

* * *

رب البندورة

مخزوناتنا سُبُلُ عيشنا. الحدائق للخضار، والبساتين للفواكه. أما أقفاص الأرانب، وفناء الدواجن، فللحم والبيض، والباقي نبتاعه مرتين أو ثلاث مرات في السنة، بكميات ضخمة مثل: نصف خنزير نقطّعه إلى أقسام نملّح بعضه، وندخّن الآخر، ونجمّد قسماً ثالثاً، ونحول القسم الرابع إلى مقانق، ونطبخ لحم الرأس، ونصنعُ مقانق غليظة، كما نشتري الرز والسكر، والعدس، والمعجنات، كما لو ان حرباً وشيكة تتهددنا. التخزين فعلُ بقاء، ردُ فعل عفوي في منطقة اللورين، هذه التي تعدُّ حصيرة أوروبا التي مسحت فيها الجيوش بصاطيرها أو اقتتلت فوقها. طعامنا طازج خلال الموسم، وبقية السنة نأكل من القطرميزات. قطرميزات لوبارفيه، مصفوفة فوق رفوف القبو. مَوكبٌ ثابت. حالة تأهب تم. تكشفُ هذه الصناديق الشفافة عمّا في أحشائها من بازلاء، وفاصولياء، وجزر، وأرنب أو دجاجة مجمّدة، ولفت وشوكروت، وفول، ومخلل الخيار، والكرز، والكشمش (عنب الديب)، وتوت العلّيق، وربّ البندورة. كل هذا تطلب نضالاً خلال الصيف: القطاف، والتحضير، أي تبعاً للحالة، الشَرْعَفة (قطع الرؤوس النامية من النباتات)، وإزالة ذيل الثمرة، والقطع، والعصر، وتخليص النوى، والتقشير، والطبخ. من الأرض الجافة التي تتخذ صفحتها شكل البثور القاحلة، والشفافة، تنبتُ شللٌ من الخُضرة، شاسعة ومسنودة، فالفاصولياء مسنودة بعصي نسميها مجاذيف. وفي الأسفل، الغابة القَزِمَةُ

المكونة من شتلات البندورة. وإذا انحدرت نحو الأسفل أيضاً تجد القرع، واليقطين المضلّع، زاحفاً مُستسلماً. نوبات السقاية التي تنفّذ في الغسق وعند الشفق، تكشف عن خصوصية المزروعات، كما لو كنا مددناها عارية، وتشرّبَ الماء المنداح فوق أجسادها روائحها. لشتلات البندورة قريحة عطرية عنيفة - إذ فجأة تجد نفسك في حديقة قسٍّ ريفي - بينما يبثُّ الخَسُّ نداوةً هَشّة، ويُصدِرُ الخيارُ الصغير المخلل رائحة حادة وعمّالية، وتجعلكَ أوراق الفاصولياء تعيش نداوة الغابة. ومع نضها، توضعُ البندورة المنتفخة، المشققة في بعض المواضع بسبب اندفاع جلودها، المقبّبة والمتكيّسة، الرائعة باختلاف حجومها، في سلال من خشب الصفصاف. يُخرجُ والدي إلى الباحة الواقعة خلف المنزل، حيث ظل الشمال النديّ، حرّاقاً كبيراً يضعه فوق الأرض مباشرة ويصله بأنبوبة غاز. أمي تنظف أوانيَ من صفيح واسعة جداً ليصبح الطبخُ فيها ممكناً. أنظر إلى المشهد من علٍ، مستنداً إلى مرفقي في نافذة مطبخنا المفتوحة: إنها مذبحة أزتيكيّة، حيث أرى يديّ أمي ملطختان بالدم. سكيّنتها تقطعُ، وتسحقُ وتقصفُ، وتفجّر اللبَّ، وتستخرجُ البزر، والجلد، والحويصلات. فتبكي البندورةُ عصيرها. أحلم بمربّى تنتابني الرغبة في تغطيس ذراعيّ فيه. امتلأت الأواني. ذلك كله يوشوش، ويهدر ويثرثر، ويغلي. أمي تحرك بملعقتها الخشبية، تتذوق بإصبعها، ثمَّ تتوبل، وترنم أغنية quesera sera (ما سيكون سيكون). يرافقها أبي مُصفِّراً، ثم ينْصبُ المعقّم، وهو مِرجلٍ من الزنك أشبه بقبعة عالية يرتديها عملاق المعرض. اختفت البندورة، ولم يبق منها سوى دمائها المختلطة، المتحدة، الحارقة التي تتصاعد أبخرتها لتصل إلى مكان وقوفي

وتغريني. سكّر وشمسٌ. أثرٌ أدبي صيفيّ. تقوم أمي، بمغرفتها بتعبئة القطرميزات التي كان أبي يناولها إياها، ثم يضعُ حلقة من الكاوتشوك حول أعناقها، ويعيد إغلاقها لتنتهي إلى جهاز التعقيم. أنبوب يحوم بصلابة فوق رؤوسنا باحثاً عن فرضيّة حول الدائرة. فيما بعد، صرت ألعب بأنبوب الرش لأكوّنَ أقواس قزح، ولاحقاً، سأذهبُ إلى صيد السمك. ولدى عودتي، سألحس الأواني وهي ما تزال فاترة. ولاحقاً ليحصل ما ينبغي أن يحصل.

* * *

صابون

كتلة تامة. سنٌّ ضخمة لحيوانٍ تاهت عن فكٍّ توارى، تاركةً قليلاً من ميناها ولبّها تحت الأظافر التي خدشتهُ. مُراوغٌ، زلقٌ، هاربٌ في ماء المغسل القروي الذي سبق أن صَبَغَهُ بلونٍ حليبي فاتح. النساء يتكلمن. عجائز شعورهنَّ صفراء وشائبة ربطنه على شكل جديلة ملتفة عند مؤخر الرأس (شينيون). عجائز ككل النساء حينما نكون أطفالاً، لكن هؤلاء أكبر سناً أيضاً. فاللائي ولدن في بداية القرن، أي القرن العشرين، قضينَ حياتهنَّ في ديمومة الحروب الدامية. تفوح من المكان رائحة بيت الحمّام، الخاص بالفقاعات الشفافة الناشئة أحياناً، بفعل ضربات المخباط، والتي أفقأها فوراً. في الماء أنا سمكةٌ بشريةٌ صغيرة، ترمقني الغسّالات اللواتي يرششنني بالماء. الشراشف تتلوى بين أيديهن. يمسحن العرقَ فوق جباههن. يضحكنَ، يُهذرمنَ، يتبادلن النمائم، دونما يبطئ ذلك عملهنَّ. لا أجيدُ السباحة. قَدَماي تتوضّعان فوق قعر المغسل الخشن. فلا أعود أراهنَّ. لا أرى جسدي. التهمَهُ الصابون الذي شَعْشَعَهُ الماء البارد قليلاً. إنه سريري إلى حد ما، ورائحته بسيطة أوليّة، ويغمر جسدي، كما لو كان يغسله أيضاً. تُخرجني جدتي من الماء. ترفعني بسهولة. لا وزنَ لي. فلست سوى كائن بشري صغير تجفّفهُ بطيّةٍ فكّتها من مريولها الأزرق. أرتجفُ. جسدي ينتصبُ ويرتعد. أتنشقُ نفسي. لقد تحولتُ إلى صابون. تُلبسُني جدتي ثيابي. أهرول إلى الخارج، تحت الشمس. أسبل عينيّ. أترك حرارة النهار تغطيني. جسر الحراميّة هناك، ضيق، يصعب على شخصين راجلين عبوره معاً. ماء

المغسل يلتقي عبر أنبوب فولاذي بماء نهر سانون في هذا الموضع. سحابةٌ طويلة مبيّضة تحفرُ غير نادمة مجرّاتها في الدوّامات. شيءٌ سائلٌ من فضولٍ لا نهاية له لبلاعيط مخيفةٍ ترمي نفسها فيه، وترتعُ بحركات عصيبة، لاإرادية، وفرحانة، تنتهي بالموت فيه، وثمة أغصان ملساء دقيقة لا حراك فيها يحملها التيار.

* * *

محطة تنقية المياه

لم يعد أحد يقفز فوق مياه الصرف الصحي. اختفى الساعي. قد نراه حياً في بعض روايات بلزاك. السلام على روحه. كلمة ماتت. غلبتها كلمة المجرور. المجرور. المجرورُ الذي كان اختراعاً للعناية الصحية بمقدار ما كان للرعاية العقلية: إذ أن عمله من أجل الصحة جعله يشجع النفاق، لأننا نحب إزالة الأشياء، والكذب على أنفسنا. ما زلنا ننتجُ مزيداً من النفايات، لكننا نرفع السجادة ونَزلقها تحتها. مياهٌ مستعملة، مالحة، مضطربة، مُدَنَّسة، زنخة، وموحِلة. ثمة شاهد إثبات. حيواتنا التي نراها في مياه مزابلها، لكن متى تحين المحاكمة؟ تعزّي المدينة نفسها بتمديداتها الصحية، وتَرمي بعيداً عن أسوارها غُسالاتها المخجِلة في أحواض صانعي البيرة، التي تدير ظهرها لها ساخرة. مسابح من دون سبّاحين، أو مدربي رياضة. في الهواء الطلق، وسط أعشابٍ مصونة جميلة، في محطة تنقية المياه، تجري عملية التصفية، والتنقية بطرائقَ يجهلها الإنسان البسيط. فهو بالكاد يرى عبر السياج، لكن يندر أن ترى فضولياً هنا. الطين يتحرك كما لو كان سُلافة عنب بصدد التخمّر. الألوان تُثبطُ همّة أجرأ المتأمّلين: ألوان سمراء مُحْبَحَبَة، وأخرى كستنائيّة، وثالثة سمراء فاتحة سقيمة، ومغراء بلون الإسهال، ورماديّة مِعويّة. تشكيلةٌ مَرَضيّة، تبعث القلق، كما لو كنّا إزاء تشخيص حيوي لجمع من الناس. نظن أن ثمة عفونة هناك. لا أبداً. وكما لا يُحكَمُ على

الإنسان بمظهرِه، فإن اللون لا يعني الرائحة. يكفي أن تتعرف على روح الحسناء تحت قسمات الحيوان. من يمكنه ذلك؟ كلنا، لو شئنا القبول. بحيرةٌ شاطئيةٌ. جدرانٌ لَحستها مياهٌ هجينةٌ نصف مالحة ونصف حلوة منذ قرون. أُسسٌ استهلكتها قصورٌ شائخةٌ بنوافذ ذات طراز عربي. جسورٌ مُطَحْلَبَة. حواف من القرميد جعلها مرور الزمن إسفنجية كعظام آلت إلى الرخاوة. شيء من الورع يندُّ عن مراسيها صَبَغها تكرار المدّ والأَشَنات التي تجيء مع شهر تشرين الثاني لتُغرق بلاطاً غير مستوٍ للساحات وأرصفة الشحن، حرارةُ شهر آب كما يُظهرها المخرج فيسكونتي، تُذّهبُ ابتسامات الأمهات، شاطئ الليدو كجلمود الفضة. تروي الأقنية ظمأها مباشرة وهي تشربها خلال الليل، ضباب، ورياح، وعصافير تحلق في عرض البحر، حمام لا عمل له.كنائس، وباصات مائية chiese voportetti. سينما دائمة للفن. انحدارٌ مستمر، إذاً فهو ليس منه في شيء. تُنشئ الدول سفارات في كل بلد أجنبي. صاحبة السمو التي تلقي الذهبَ حفناتٍ لنتذكّرها، ونموت بسببها أحياناً، لم تقترّ: فكل محطة لتنقية الماء تعدُّ واحدة من عطاياها السريّة. يكفي أن نعرف ذلك. فيها تمنحُ جوازات السفر والتأشيرات في أيّ موسم لكل الهواة، من دون انتظار أو رسوم. لا تلحظُ العاملين فيها بحيث تحسبهم غائبين. كم مرّة توقفت بالقرب من قنالي الصغير، وتنشقت رائحة البندقية أمام أحواض المياه الوسخة. وكم مرة، عبرت مُجذفاً فوق القنال الكبير في البندقية cite des Doges، أو سائراً في شوارعها، وفكرتُ بمحطة دومبال لتنقية المياه، ثم بمدينتي الصغيرة، وبالتالي، بموطني

الذي أعده بمثابة ضاحية أو أكثر بكثير؟ تعرفُ الجغرافيا، هذا العلم العتيق، أحياناً كيف تجعل نفسها خبيثة، فهي تلعب معنا وهي تلعب بنفسها. إنها تخلط الأماكن، كما نخلط ورق اللعب. تلمس الملكات عندها خدامها، فيضطربون، وتحمرّ وجناتهم، ويخفضون أعينهم، ويتنشقون عطرهنَّ ويحلمون. يتركنهم يفعلون. إذاً ما الذي نعرف ما يخبئه المستقبل؟ من يصبحُ ملكاً غداً؟ ومن يصبح لا شيء؟

***

أرض

أحبُّ حَفرَ الثقوب. وأحب الهروب في فصليّ الربيع أو الخريف. في الصيف، أفضلُ صيد السمك، لأن الأرض، في كل الأحوال، تكون جافة وقاسية. تتمنعُ، فلا أستطيع سوى خَرْمَشَتها، ليس أكثر. آذار أو تشرين الثاني، شهران ريّانان. أرضٌ ثقيلةٌ دعا الماءُ نفسه إليها لفترة كافية لكي نتمكن من نقبها. لديّ أدواتي. يداي أولاً، ومعازِق أيضاً، ورفوش، ومناكيش، ومُخُول.أحفر. في حديقتنا، قبل البذار، وبعد جني الغِلال. في فيلم ١٩٠٠ لبرناردو بيرتولوتشي، يُدخل الولدان عضويهما في الثقوب التي تحفرها فأرة الحِراج، فيقول أحدهما للآخر إنه بهذه الطريقة «يضاجع الأرض». أما أنا فأريد أن أغرقَ فيها كليّاً. أختفي فيها. لا أريد أن أموت، لا، بل أريد أن أختبئ فيها لفترة. أن أعرفها. أن أصلَ إلى بطنها. أن أجعلَ لنفسي فيها ملجأً. أرض حدائقنا سوداء، أقل اندماجاً ببعضها من الصلصال الأحمر لنهر رامبيتان أو أطراف نهر سانون. إنها أرضٌ طيّعة، لا تبدي أي مُقاومة. أعثر فيها على بقايا أواني، ورأس غليون، وحصى، أو قطعة من طبنجةٍ تعود إلى حرب ٧٠ - الحرب التي دارت في أوهلانس وريزونفيل، وغرافيلوت -، وبعض عِظام القوارض. أحفرُ لساعات في روائح الأحشاء. وغالباً ما أشمُّ يديَّ، والجانب الداخلي للحفرة التي أندسُّ فيها شيئاً فشيئاً. أحياناً أتذوقها، هذه الأرض، قبل أن أبحث عنها والإحساس بها لزمن طويل فوق لساني، أو بين أسناني. أشمُّ جزيئاتها، وحبّاتها، وطعمها الملوّن من

معادن مختلفة. أجلس فوقها، وركبتاي مسنودتان إلى جذعي، ومعي بعض الطعام، وقضبان الشوكولا، وقطعة خبز، ومَطَرة ماء. لا أملُّ أبداً. أعيش في طمأنينة. أنا في حفرتي. بعد زمن طويل، سأقرأ كتاب كافكا «الجُحر». لكني، أنا، فعلاً لوحدي، لا أحد يحفر بجانبي. ليسَ عندي ما أخشاه من الجار. ذات مرة، تمكنتُ من حفرِ حفرة أعمق بكثير من الحُفَر السابقة، وجلست فيها، مبهوتاً بهذه الفجوة التي تفوق توقعاتي كلها. سعيدٌ بها، وبهذه الحرارة النسبية. تأخذ الأرضُ من جسمي دفئه. أفكر بالخُلد، وفروه المتماسك، وقوائمه الصلبة. أعمى محكومٌ بالحَفرِ الدائم. حياة دهليزية وليلية أبديّة. يصطاده أبي بفكوكٍ حديدية يزرعها في طريقها. فجأة تنهار حيطان حفرتي الداخلية من دون سابق إنذار. أجد نفسي مَدفوناً. لحسن حظي، لم تكن طبقة التراب فوقي سميكة. لم أمت مخنوقاً. كما أني لم أخف. ثمة تراب في كل مكان، فوق شعري، ووجهي. وتمكن من بلوغ قبتي، والانزلاق بين جلدي وملابسي.إنه انتقام. وابلٌ من تراب. ثلجٌ أسود تفوح منه رائحة البرد، والجذور العفنة، والتحلّل، وشيءٌ من الغاز أيضاً، كرائحة الكمأ الذي يعدُّ ماس العتمة. لا أريد أن أحترق. أخافُ النار. أخاف أن تُماهيني النار ببداية احتراق قطعة لحم مشويّة تافهة. لا أريد أن تتصاعدَ مني رائحة الشواء. لست ضلعَ ثور. ثم، الرماد، لم يفعلَ أحدٌ به شيئاً. الصناديق الزجاجية قبيحة. وماذا عن هذا الجسم الكبير في الداخل؟ لا. شكراً. مستودعات مرامد الموتى تشبه مقابر الكلاب. أود الدخول في حفرة للمرة الأخيرة. سأفعلُ هذا بنفسي، لكن قد يعدّني الناس مجنوناً. أريدُ أن أُدفنَ في دومبال، مقابل بيت طفولتي تماماً، بعيداً عن حديقتنا،

في المشهد الطبيعي لنهر رامبيتان، ومشهد نهر سانون. آخر رغباتي. التراب هو نفسه على جانبيّ الطريق، أسودٌ تفوح منه رائحة المزروعات في السبخات والرطوبة الطيّبة. رأيت ما يكفي من القبور المفتوحة، وحفرتُ ما يكفي من الحُفَر، لذلك تراني واثقاً. الحَفْرُ يعني أن تتعلم الموت.

***

زيزفون

في إحدى قصائده الرباعيّة يتحدث بودلير في ديوانه *أزهار الألم* عن العملية الموسيقية الساحرة، الخيميائية الحسيّة التي تختتم نهاية النهار:

هي ذي الأوقات التي تأتي فيها كل وردة
تهتز فوق ساقها
لتتبخر كالمبخرة،
النغمات والعطور تترنح في هواء المسا؛
كرقص الحزانى وتيه الأسى!

في مقابل بيتنا، قريباً من المقبرة، وفي الطرف الآخر من طريق سومرفيلر، تنتصبُ شجرةٌ عمرها مائتي عام، نسميها «الزيزفون الضخم». كبرتُ تحت ظل جسمها الفضفاض، الوارف، المبجَّل، معجباً بتفرع أغصانها المتعرجة، الناحلة، كما يرسم بروغلي أو الرومانتيكيين، خلال أشهر الشتاء، الحثلة (كثيرة الأوراق)، الضاجّة بصياح آلاف العصافير التي تلحق ببعضها فيها. وتتحاب، أو لإخفاء أعشاشها طيلة الموسم الجميل. فانوس، هو لها بمثابة مصباح السرير، ليضيء ليالي الربيع وإيراقه اليَشَبيّ بضوء شمعدان.هذا المشهد الحُلميّ أشبه برسوم رونيه ماغريت أو أندريه ديلفو، ويمكن أن نتوقع، في أي لحظة، رؤية شخصية بلباس قاتم، معتمرةً طاقية أو صبيّة عيناها واسعتان بلون اللوز، رقيقة تلفعها خُمُرٌ طويلة خفيفة، تعبر الهالة السكرّية التي تميّز صفحة رصيف متطاول عن الظلال المجاورة. تنبعث

الحياة في خنافس الأشجار في هذا النور الذي يكون قاتلاً لها أحياناً، ونذهب، حين يُتاح لنا بالسهر أكثر من المُعتاد، للإمساك بها بعد أن تسقط وتتحطم فوق الأرض وتبقى للحظات مخبولةً عطوبة. نأخذها بأيدينا، فنشعر، وهي في راحة أيدينا، بحكة أقدامها اللذيذة وقساوة دَرَقتها الشبيهة بدرع مُلمَّع. فيما بعد، أي في اليوم التالي، نستخدمها في ألعاب عنيفة، حيث نحوّلها إلى طائرات نربطها بخيط نمسكه بأيدينا، ونتركها تطير بشكل دائري. لكن الآن، هو وقت الصيد، تحت الزيزفونة الضخمة المورّدة المحاطة بسحابات من النحل الرافض للذهاب إلى النوم في قفيرته. تنشر فوق رؤوسنا مظلتها الواسعة من الأوراق الجديدة، وتويجات شاحبة، وغَرِيفٌ طحينيّ أصفر كامد. في استنشاقه يُفعمكَ العسلُ الذي لم يبق له سوى أن ينتُج، كما في تحول المادة. وسيكون لمساءات حزيران في شهر كانون الثاني المتجمّد والثلجي، امتدادها الأشقر، المدهون بعد العودة من التزلج فوق قطع الخبز الساخن، كما في الزهورات الحارقة حيث ورود الشجرة، بعد أن تغادر وضعها كسجينة مجفّفة، ضَجِرة في قطرميز زجاجي، من خلال تمييهٍ جديد صاعق، ستفتح مرة أخرى أجسادها في الماء الساخن لتمنحه روائحها المحفوظة لتكون بمثابة إيفاء بعهدٍ منذور.

* * *

تحميص

بعد وصولي مدينة نانسي، استأجرت شقة في الرقم ٢٧ من شارع لاغراندرو في أقدم أحياء المدينة. صرتُ في التاسعة عشرة من عمري. كان ذلك في شهر أيلول عام ١٩٨١. كل ما في الشقة ما يزال وسخاً، أسود، بعد أن سكنتها عائلات فقيرة ذات أعداد كبيرة. غالباً برتغالية. تمارس القطط غراميّاتها بحريّة وتتكاثر من دون حساب في ظل كنيسة سان - إيبفر. الغانيات الأكثر شباباً يتجمعنَ في ساحة مالفال، والأكبر يلتقين زبائنهن في الغرف، لا سيما مدام عايده التي لم أتبادل معها سوى أحاديث وديّة. لا شيء غير ذلك.

غادرت بيت الأهل والمدرسة الداخلية في لونيفيل وفي جيبي شهادة البكالوريا. سجّلت في الجامعة التي لم أدخلها إلا لماماً. أتردد على الحانات والمشارب الصغيرة والمقاهي. يبدأ نهاري باكراً في مقهى الإكسيلسيور وينتهي متأخراً فيه نفسه. في غضون ذلك، شربت في مقهى دوهيميسفير، وأكاد والإنستيتو، وشبه تيمي، وكارنون وفوا. وكوميرس، ودول، وبار السوق، وفي غران سيريو، وغيرها كثير من المقاهي التي نسيتُ أسماءها. أشربُ. أحلم. قهوةٌ سوداء، وبيرة سمراء، وأقداح من النبيذ الأحمر، والجروغ grog، وبيكون، والشاي، وشراب اللوز، والجن الصافي. أنفق راتبي. أظنُّ نفسي شاعراً فأكتب أبياتاً رديئة فوق دفاتر لولبية. أقضي وقتي بالقراءة أياماً بطولها في مكتبة البلدية ذات الجدران الخشبية الجميلة. قرأتُ كتاب *تاريخ حياتي* لجياكومو كازانوف، ومجلدات لابليّاد بلونها الأزرق

المُلَطَّف. أنظرُ في وجوه الفتيات المجتهدات الجالسات قبالتي. وفي الشارع، أنظرُ إلى أجساد النساء. أحياناً، ألاحق إحداهنّ لساعات، وأحاول تخيّل حياتها. يحدث أحياناً أن أتمكن من مضاجعتها، لكن ليس هذا هو الهدف الرئيس. عشت هذه الحياة الشبيهة بالخشب العائم طيلة عامين. فعملي مراقباً في إحدى الثانويات يوفر لي القليل من المال والكثير من الوقت. أحسُّ بالتعاسة، لكني أجهلُ السبب. أتطلع إلى حياة غنيٍّ مشبوه، لكني أحبُّ جُبني. أود لو أحملُ مسدساً في كل واحد من جيوبي، رغم أني لا أعرف إطلاق النار. قد يحمل المرء روح قاطع طريق لكن ليس أحشاءه. أنا فنان بلا فن. قد أنتهي إلى سكيّر، أو سارق، أو قوّاد أو عاطل محترف عن العمل. بل أسعى حتى إلى بيع العطور المزيّفة استجابة لأحد الإعلانات. حُدد الموعد في نهاية الشارع الذي، في الجزء الذي لا يتردد إليه الناس كثيراً، بالقرب من لابورت دو لاكراف. أصعدُ بناءً متعرّجاً. في الطابق الثالث، فُتح الباب. وجدت نفسي في مواجهة نفسي آخر. بعد عشرين عاماً: رجل شديد النحافة، ذو نظرة تائهة، غير مرتاح في بدلة الفيسكوز المُبقعة وظهرها المستقيم. شرحَ لي النصّابُ المثير للشفقة، وهو يلوي ربطة عنقه، متهرباً من عينيّ، أن عملي لا ينطوي على شيء غير مشروع. غير مُصرَّح به في الوقت نفسه. سلّمني صندوقاً يتضمن أربعين عيّنة يفترض أنها تقليد لأشهر أنواع العطور الدارجة، وقال إن عليَّ ألا أتحدث عن النماذج أو الماركات المزيّفة. ينبغي أن أترك الزبائن يتعرفون عليها، وكذلك عدم تسميتها، لأن عملي يصبح مُداناً اعتباراً من هذه اللحظة. تمنى لي التوفيق، بعد أن وضع في جيبه ضمانة بقيمة مئة فرنك طلبها مني. عدت لأجد نفسي في الخارج متخففاً من عبء كبير، وتحت إبطي علبة الروائح. فجأةً، أحسستُ بأني مُغرقٌ في

الحماقة. كان ذلك في أحد صباحات الربيع. جاءت الكنّاسة الآلية لرش الرصيف وتنظيف المجاري المائية. السماء الزرقاء ترسم تقطيعات فوق السطوح الأردوازية الرمادية. دخانٌ يخرج من باب حانوتٍ مفتوح. دخان حبات القهوة التي كانت بصدد التحميص. اجتاحني حضور كلود الشهوانية، فلم أقوَ على الرحيل. سحرني عطرُ حبات القهوة الدائرة في المِرجل الحارق، وجمّدني مشهد يجري ليس بعيداً في المكتب المبقّع. لم أندم على مائة الفرنك التي دفعتها، بل على العكس. البعضُ يمدُّون المبلغ نفسه كل أسبوع فوق الأريكة، كما يمددون أجسادهم، وذلك طيلة سنوات، لكي يتعرفوا على بعضهم بشكل أفضل. قمت فقط بعلاج تحليلي مستعجل. ظهرت لي الحقيقة عارية، وشاحبة. خدعني النصّاب، لكنه أيضاً فتح عينيّ: لست سوى أحمق يتجه مباشرة نحو فشله. أبدّدُ الوقت كقطعة نقدية تافهة. أنا شيء قليل، مستعد لكي لا أكون شيئاً أبداً بسرعة. في ضوء هذا النهار الجميل القديم، الذي غسلتهُ الشمس، بقيتُ فترة طويلة فوق الرصيف، مع رائحة القهوة المُحمَّصة، التي تختلط بالهواء البارد، وعلبة العطور المزيّفة تحت إبطي، محروم من آمالي العظام، لكني اغتنيتُ، مرة أخرى، بوضوحٍ ذهنيٍّ خصيب، بعد أن وبّختني الحياة، وطردتني بركلة على مؤخرتي غير المادية، لأنها لا يمكن أن تكون حياتي.

* * *

ترغلّة

التوأمان فاغيت يقطنان بيتاً ضخماً تطلُّ واجهته البسيطة على شارع غابرييل بيرى الذي يعدُّ بمثابة شانزيليزيه مدينة دومبال، لكن يمكن للمرء أن يذرعه بمايوّه كامل، أو بلباس عُمّاليّ أزرق. تعود ملكية ذلك البيت إلى تاجر الحبوب الذي توقف عن عمله. الأب بيزلنغ، ذو شاربين، يضعُ قبعة فوق رأسه. في صوته رعشة، وجسمه محنيّ. إنه أيقونة يركب سيارة دوشوفو قديمة أو دراجة بمحرك (سولكس). إجمالاً، إنه يمثّل الجد النموذجي الذي أحلم به، أنا الذي لم أعرف جدّيّ أبداً. خلف البيت، تمتد حديقة ومنتزه لا حاجز له، وأشجاره قديمة تصل أغصانها إلى مساكن إليزا، وعيادة جان دارك، حيث ولدتُ ذات يوم من شهر شباط. شهدنا منتزه الصيف والخريف هذا، ونحن نضحكُ ونكبر، ونختبئ، ونتضارب، ونبدّل سحناتنا. نركضُ فيه، وننام، ونشعل النار بعيداً عن الكبار وجِديّتهم. حينما صرنا في سن الثالثة عشرة، شرعَ لوران، أحد التوأمين فاغيت، بتربية التِرغلات في سقيفة مائلة. تكاثرت الأزواج وذريتها. ندخل هذا المكان لنشتم شذى ذرقٍ أنيق. عطرٌ ناعم يتضوّع من قشٍّ، وريش، وماء آسنٍ، وحبوب، وزغبٍ دافئ، بالكاد نلاحظه. لا يشبه أبداً قن الدجاج عندنا - الذي أعُدُّه مع ذلك - نوعاً من السكن الاجتماعي يأوي كثيراً من المستأجرين غير المهتمين كثيراً بالنظافة، ويتركون البراز والريش في كل مكان، وأيضاً بعض البيض الجيد، كما لو كانوا يعتذرون عن الإزعاج. التِرغلّة عصفور مَلَكيّ. تبيض وتعيش في بهجة. عدد تفقيساتها

غزير في مرحلة الذروة، ونلمس تحت البطون الحارقة للأمهات البيضَ الهشَّ الذي تنعقد فيه الشُعيرات الدقيقة اللازمة للحياة. تمنحُ أشعة الشمس الكوخَ هيئةَ مُصلّى يملؤه الهديل. بعض الريشات الناعمة الضائعة تتطاير في السراب. عيونٌ سوداء تقيمّنا، بأثوابٍ رماديةٍ تنتشر فوقها عقودٌ سوداء. ينتابنا شيء من الخجل، على ما أظن، ونحن ننبش، على هذا النحو، قصص عائلاتٍ ليست عائلاتنا.

* * *

شيخوخة

إذا كانت خدودهم تشبه بعض الفواكه، كالتفاح أو الأجاص، المجعّد أو المُرقَشّ، حينما يقبع زمناً طويلاً في إناء من الخزف، فلها أيضاً رائحة شمعيّة، مُلَطَّفَة، وساحرة، بعيدة وناعمة، وذكرى عطر وليست العطر نفسه.اقترابُ الموت يترك في الجسم اهتراءً مثيراً كاهتراء قماش عاف اللبس والغسيل المتكرر. بنيته التي ازدادت شفافيتها صارت تتمتع بمرونة مثالية. لكننا نعرف هشاشتها.ا أشبه جلدُ المسنّين وشعرهم بهذا القماش الذي نود المحافظ عليه دائماً ونرعاه حتى لا يتشقق أبداً. مع ذلك، ندرك أننا قريباً لن نتمكن من تقبيل هذه الكائنات المترنحة، الناعمة، ولهذا تُعدُّ قبلاتنا لهم، وقبلاتهم لنا، في كل مناسبة، بمثابة لقاءٍ ووداع، وانفعال يُضعفُ أحاسيسنا لرغبتنا في الاحتفاظ بهم مااستطعنا إلى ذلك سبيلا. بدءاً بالابتسامة الصغيرة، إلى طرفة العين، والكلمات، والمداعبات، والحرارة والرائحة. أتذكر منذُ طفولتي نساءً مسنّات تنتشر فيهن التكيّسات - نسميها حبات الكرز – وتستكملُ ذقونهنَّ عُشنونة شائبة، ولا تدعو وجوههنَّ إلى الحنان، بل لو اقتربنا منهنَّ، لرأينا كيف تنتشر روائح زيت اللوز، وورد شجرة البرتقال، والزهرة العتيقة. ثمة مسافة كبيرة بين ظاهر وجوههن البشع، وأجسامهنَّ المكسورة. بعضهن يمشين مقوّسات الظهر كزاوية قائمة. يُبخبخنَ أجسامهنَّ بعطور الصبايا، كالرّضع في مهودهم، بحيث يبدو لي غالباً أنني أحلم بهذه الروائح. لكني أتذكر عجوزاً أخرى، نسميها ساحرة الحدائق، وهي تبولُ واقفةً من دون أن ترفع أثوابها الطويلة، أو قميصها

الفضفاض، أو مريولها، وهي ترسلُ نظرتها، المحجوبة بهادة بيضاء، نحو البعيد ممسكةً بمغرفتها، ثم تعود فوراً إلى عملها بعد أن أراحت نفسها. حينما ألتقيها في الشوارع، وهي تجر عربتها التي تضع فوقها عدتها، أحثُّ الخُطى - تجنباً لآثار البول الزنخة الذي طالما تتشربه ملابسها، ليس لكي لا تخور قواي، بل بكل بساطة، لأنها تخيفني، لا سيما وأنا في هذا العمر الحرج، الذي نبتعد فيه عن أي شكل من التفكير البدائي. إلا إننا نحتفظ بأكثر الخرافات المعروفة. عليَّ أيضاً الحديث عن الرجال المسنين في تلك الفترة، والذين غالباً ما أسعى إلى صحبتهم للتعويض عن غيابِ جَدّيّ اللذين توفي أحدهما في عام ١٩٣٨ قبل سنوات طويلة من ولادتي. حيث أصيب لوسيان، جدي لأبي، بمرض اللشمانيا، وتوفيت جدتي لأمي بول، بعد أن توقف قلبها وهي في منتصف الشارع، أي بعد أن أصيبت *بأزمة* قلبية، وهي الكلمة التي طالما سمعتها أثناء طفولتي، وتعني ابتزاز الموت، ووحشيته الدنيئة وهو ينقضُّ على ضحيته. أحبُّ المسنّين. أحبُّ كل شيء فيهم. نظراتهم، كلماتهم، حركاتهم، دراجاتهم الهوائية المخلّعة، ودراجاتهم النارية الصغيرة، وغضبهم، ومعارفهم. ملابسهم التي يرتدونها صيفاً أو شتاءً، عبارة عن ثياب صوفيّة مُرَقَّمة ذات ألوان كستنائية أو حمراء بنفسجية، وبناطيلهم وستراتهم أشبه بنبرة الوقّاد التي يخفّفُ زنجارُها من لون لوحة الشواطئ المبيضَّة، قبعاتهم الباسكيّة الرثّة التي تآكل جلدها الداخليّ لكثرة ما امتص من أنواع التعرّق، وعاداتهم التي لا تحسّ بها في العديد من المقاهي التي تحتضنها دومبال في تلك الفترة، وتسربلهم بعطر التبغ الرمادي وأكياسه الجلدية، والنبيذ الأحمر، والصوف، والوحدة، وشحم المحرّك، ونار الحديقة. تلك كانت روائح والدي في السنوات الأخيرة من عمره،

لكن تنقصها رائحة التبغ لأنه لم يكن مدَخِّناً. أنا وإياه الذين لم نتعانق كثيراً في السابق - لم يُظهِر والدي أبداً أي شكل من اللين - نستدرك الزمن الضائع. أحبُّ ضمّهُ بين ذراعيّ حينما أزوره، وأغادره، وأُطيلُ أمدَ هذه اللحظة. أصبح جسمه هشاً ونحيلاً، وعظام كتفيه متقاربتين، بعد ضمور العضلات، وذوبان الشحم الذي كان يشكل ذات، يوم كتلاً كبيرة متماسكة. أضمّهُ إليَّ، وأعانقه عدة مرات.فيتكون عندي انطباع مثير بأني أعانق طفلاً عجوزاً جداً، وأتنشقهُ.

***

سَفَر

أعود إلى بودلير مرة أخرى. لقد عرفَ هذا الرجل أن العوالم يمكن أن تصمدَ في القناني، أو في خصلات شعرٍ ثقيلة نائمة. أحمل دائماً معي أشعاره، رفيقاً يُلازمني. فهي أفضلُ من دليل السفر، كل الأسفار، لأن السفر الناجح يعني أن تضيع، والانفصال عما هو معروف لكي تولدَ مرةً أخرى بلا ضجة، وتترك لأحاسيسك شأن ترويض الأرض. وتستنشق، كما لم يحدث معك من قبل، البلدان الجديدة نفسها. لذلك، تُهتُ طيلة سنوات، سعيداً، في أسواق استانبول، ومراكش والقاهرة، وأسوان، وتايبيي (الصين الوطنية)، وهواراز (أمريكا الجنوبية)، وشنغهاي، ودينبازار (إندونيسيا)، وباندونغ، وليما، وسايغون، وشولون، وهانوي، ومالطا، وهلسنكي، وميريدا، وعدد كبير من المدن الكبيرة أو الصغيرة، الحارقة كما هي حال ديار بكر، التي تخفي سوقها للتبغ، على شكل أكداس شقراء مثيرة في ظل خان للقوافل. سوقٌ باردة مثل مدينة كراكوفيا في شهر كانون الثاني. أبحث في الأسواق المزدحمة عن فراءٍ، ومذودٍ من ورق الفضة والمسك، لأقتل الخَدَر في أناملي. الأسماءُ قصائد. والعطورُ زوارق صغيرة تأخذنا أنّى اشتهى التيَّار. ثمة مكانان يشدانني حينما أكون في سفر، وإليهما أتجه بزيارتي الأولى بعد وصولي. الكنيسة إذا كنت في بلد مسيحي، والسوق. الكنيسة، لمعرفتي بأني سأجد رائحة الحجارة الباردة نفسها، والشمع، والصبر، والبخور. إنها إلى حد ما بيتي المحمول، بيتي الدائم بهندستها المعروفة، وهدوئها وتحفظّها. أما السوق، فلأني أشتمُّ فيه رائحةَ روحِ الأرض وجلد الناس، ثمرة عملهم في

متاهةٍ هي مزيجٌ من روائح مروّعة ولذيذة، وشحم نيئ أو مشوي، وليمونيّةٍ، ورائحة الكزبرة المقطوعة عشوائياً بالمقصّات، وذرق العصافير الأسيرة، واللحوم الباهتة لحيوانات ذُبحت حديثاً، والياسمين، والجلود المدبوغة، والكبريت، والقرفة، وتويجات الورود، والأمعاء، واللوز الطازج. أو المحمّص، والكافور، والإثير والعسل، والمقانق والنعناع، والليلك والزيت، والشوربات، والفطائر، والأسماك، والأخطبوطات، والطحالب المُيبّسة، والحبوب. تسطيرُ الأسماء، واستنشاق مقاطعها، يعني كتابة قصيدة العالم العظيمة، وقصيدة رغباته العميقة. وهو ما فهمه الشاعر ساندرار بشكل جيد في قوائم أطعمة مَرومَة. كتبها وهو يرتعد في قلب نيويورك التي لم تقبل به. لكلِّ حرفٍ رائحته، ولكلِّ كلمةٍ عطرها. وكل كلمة تبعث في الذاكرة مكاناً وما يفوح منه. والنصُّ الذي يُنسجُ شيئاً فشيئاً بأبجدية المصادفات المرافِقة، والضمّ، يصبح عندئذٍ ذلك النهر الرائع المتفرّع ألف مرة، والفوّاح بأريجه، لحياتنا التي نحلم بها، لحياتنا المعيشة، لحياتنا القادمة، النهر الذي يجملنا ويكشف أسرارنا.

* * *

«أعرفُ أنني وُجدتُ، وأنا واثق
من هذا، لأني أحسست. وأعرف أنني
لن أعود موجوداً حينما أكفُّ عن الإحساس».

جياكومو كازانوفا
قصة حياتي

انتهى الكتاب

sexe feminism

بمَ يحلمُ أولادٌ يرون الفتيات وهن يعبرنَ أمامهم؟ طبعاً. بهذا. إنسانيتنا مزدوجة، مكوّنة من سرّين متكافئين، يرصدان بعضهما، ويحتكّان، ويختلطان دون أن يغيّرهما ذلك، أو قليلاً جداً. أجسادنا التي تختلط ببعضها في بعض الأوقات. لا يمكن أن تختلط رغم كل شيء. رجل حام ومتحمس، وامرأة ندية وباردة، بحسب النظرية القديمة حول الأمزجة، وهي لا شكَ خاطئة، لكنها شاعرية بشكل جميل جداً. مذ أن كنت في الحضانة أردت أن أعرف عضو المرأة، فكنت أخترع ألعاباً ورهانات حتى أتمكن من زلق أصابعي في كلاسين رفيقاتي القطنية. وهكذا، فإن سنواتي الخمس تداعبُ انتفاخاً غريباً ناعماً مشقوقاً في منتصفه بخط عموديّ ومخمليّ. حدُّ بلدٍ، أفضل أن أتوقف فوق درجاته حذراً، أو ربما خائفاً من الاستمرار في بحثي. جويل، كريستين، فيرونيك، صاحبات شهوانيات تفوح منهنَّ رائحة مرهم نيفيا، ودفء جلود الطفولة، ومسحوق الغسيل الذي تستعمله أمهاتهنّ من نوع بيك أوكورال. أو آيبيل. بعد هذا فراغ كبير. الحياء، وأنا أقلَّ حياءً من صديقاتي، إضافة إلى الفصل الذي تعمد إليه المدرسة الابتدائية بين الأولاد والبنات، يبعدانا عن بعضنا البعض. الثانوية college تجمعنا، لكن بعد أن تغيرنا. فنحن الأولاد، نتباهى بنشاطاتنا الفظّة، بينما الفتيات يتجمعنّ في الباحة في حلقات صغيرة. يتمتنَ، ويرمينا بنظرات ساخرة. أصبح «شمُّ الفتاة» بالنسبة إلينا شتيمة، ونروج مِزحات، لم نتحقق منها، بطبيعة الحال أبداً حول الصلة الشميّة بين عضو الفتاة ورائحة الغدير، أو رائحة السمك الفاقد لشيءٍ من طزاجتهِ، أو

القريدس الوردي أو الرمادي. ينتابنا قرفٌ صريح، لا سيما حينما نعرف، من دون أن نفهم تماماً، أن ثمة دماً مدراراً كثيفاً يوسخ ما بين أفخاذهنَّ، سائلاً من ذلك الشق الذي لم نعد نتذكره إلا لُماماً. لسابين سروال سباحة برتقالي لم تلبسه أبداً قبل أول خروج لها إلى المسبح. الأولاد والبنات يتبادلون النظرات، ويسعون إلى فك ألغاز بعضهم. لم نَعد نتخابث كثيراً. نحن الأولاد، نحافظ على أجسامنا الشبابيّة، التي لا جنس لها بعد، بينما صدور الكثيرات تخرج من الماء. مايوها المبلل لم يعد برتقالياً، بل أصبح شفافاً فوق فخذيها، ما يشبه العلامة السريّة، إذ برز مثلث أسود. لاحظتْ ذلك، فحارت، ثم غطته خلف يديها المشبوكتين. تأخرت. بقي فمي مفتوحاً. انشداه. نتذكر اللحظة الدقيقة التي تولد فيها الميول. ما زلت اليوم أيضاً أراه بدقة بالغة. لقد ترأست بحثاً لم يصل بعدُ إلى لذائذه. نرفال وغوتييه طافا أوروبا *بحثاً عن الشُقرة*. وكرستُ سنوات لاكتشاف عضو المرأة. ليس بحثاً عن الأصول، ولا لإدراك أهمية ما يسميه بول كلوديل بعبارة تتعلق بقسوة الصيد التي تدفعني إلى التفكير بأنه ليس عليه أن يحبه، أو يحترمه، أو ليعرفه حق المعرفة، *وجار العِرق*، بل لأُذهلَ اختلافات شكله، ونعومته ورائحته، لأن أياً منها يشبه الآخر، ولا يُزين أحدها بالأريج نفسه، أو بالسلوى نفسها. والقبلات التي نطبعها فوقه كقرابين أو سلوى تحاول ترويض المخلوق النائم الذي يبدو أنه يعيش فيه في عطر دائم يذكّر، تبعاً للنساء، بشجر الأرز، والصنوبر الذي نقليه، وحموضة الكبّاد الضعيفة، والمسك المتضوّع من بعض الفرو الوحشي، وبالحليب، والحبوب الثابتة، والكاراميل، لكن هذا كله ضمن تلطيف لعلامات موسيقية صغيرة.